الفصل الرابع

فترة الخلافة

obeikandl.com

١ – العهد الذهبي للحكم الأندلسى :

تعود المؤرخون أن يجعلوا فترة الخلافة الأموية بالأندلس تبدأ باتخاذ عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة الناصر لدين الله ، سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) وتنتهى بسقوط آخر أموى فى قرطبة ، وقيام ابن جهور بالأمر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) . وقد يكون المؤرخون على حق من الناحية الشكلية ؛ فهم يعنون بما هو رسمى ، والرسميات توجب ذلك فعلا ؛ لأن حاكم الأندلس قد لقب بالخليفة منذ تلك السنة التى حددوا ، ولأن الخلافة انتهت تمامًا فى التاريخ الذى ذكروا. غير أننا لانؤمن بالشكليات فى الدرس الأدبى . ولا نأخذ بالرسميات أيضًا فى هذا الدرس ، وإنما نعنى فقط بما هو حقيقى ؛ لأنه هو الذى ينتظر منه تأثير فى الأدب . ومن هنا نعتبر فترة الخلافة الحقيقية ، هى فترة عبد الرحمن الثالث [١] وابنه الحكم الثانى [٢] . أما ما تلا ذلك من زمن حتى قيام ابن جهور بالأمر فى قرطبة فلم يكن للخلافة الأموية فيه إلا الاسم . على أن بعض هذا الزمن ، قد خلا تمامًا من أى خليفة ، وكان الأمر فيه لآخرين كما سنبين ذلك فى موضعه .

وإذن فالخلافة الحقيقية تتمثل فى ذلك العهد الذى كان حاكم الأندلس حقيقة خليفة . وهذا العهد لايعدو أيام عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى . والحق أن الأندلس شهدت فى تلك الأيام عهد حكمها الذهبى ؛ فهى لم تعرف قوة نفوذ ، ولاهيبة حكومة . ولا عظمة حاكم ، كما عرفت فى تلك الفترة . وكان ذلك أولا بفضل عبد الرحمن الثالث الذى فعل الكثير من أجل خلافة أندلسية عظيمة ، ثم ابنه الحكم الثانى ، الذى سار على سنة أبيه فى تدعيم هذه الخلافة .

---

(١) حكم من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ (٩١٢ إلى ٩٦١ م) .
(٢) حكم من سنة ٣٥٠ إلى ٣٦٦ هـ (٩٦١ إلى ٩٧٦ م) .

وقد تولى عبد الرحمن الثالث [١] أمر الأندلس بعد موت جده الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ، فى ظروف كلها قسوة وكلها أخطار ؛ إذ كانت البلاد فى عهد الأمير عبد الله ، نهباً للطامحين والطامعين من عرب وبربر وإسبان ؛ حتى أصبح كثير من أقاليمها مستقلا عن إمارة قرطبة أو كالمستقبل عنها . هذا بالإضافة إلى الثورات الداخلية والتهديدات الخارجية ، مما أوشك أن يذهب بالإمارة الأموية وربما بالحكم الإسلامى أيضاً .

تولى عبد الرحمن الثالث فى تلك الظروف العصيبة ؛ وكان ابن اثنين وعشرين ربيعاً تقريباً ، فاستن سياسة الحزم والقوة والتضحية . وراح يتغلب على الأخطار العديدة فى جرأة وذكاء .

وقد بدأ عبد الرحمن بالخارجين والثائرين داخل الأندلس فأخضعهم واحداً بعد الآخر ، وساعده الحظ بموت بعض هؤلاء الخارجين ، كابن حجاج المستقل بإشبيلية ، وابن جودى المستقل بغرناطة ؛ فقد ماتا قبيل تولى عبد الرحمن أمر الأندلس .

وهكذا لم تمض إلا سنوات ، حتى عادت أكثر أقاليم الأندلس موحدة تحت إمرة هذا الفتى الأموى القوى . غير أن إقليمين قد تأخرا بعض الوقت فى الخضوع لعبد الرحمن . وهما : إقليم بُبَشتر الذى كان يسيطر عليه ابن حفصون ، وإقليم طليطلة الذى عرف بالثورات وكثرة الخروج . أما الإقليم الأول فقد تم إخضاعه تدريجياً ، إلى أن كانت السيطرة عليه آخر الأمر . فبعد موت ابن حفصون سنة ٩١٧ م دخل ابنه

---

(١) انظر فى ترجمته وأعماله وعصره :

البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٣٤ وما بعدها .

وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ وما بعدها .

وأخبار مجموعة ص ١٥٣ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Lévi Provençal : Espana Musulmana, pp. 261 ff.

حفص فى طاعة عبد الرحمن . وظل آخرون من أبنائه على العصيان حينًا ؛ ثم مالبثوا أن هزموا وسقط حصنهم سنة ٩٢٨ م . وأما الإقليم الثانى — طليطلة — فقد شدد عبد الرحمن الحصار عليه ، وظل على هذا الحصار سنتين ؛ حتى لقد أقام على الجبل القريب من طليطلة حصنا سماه مدينة الفتح ، ليكون الحصار دائمًا حتى تستسلم . وفعلا استسلمت المدينة العنيدة الثائرة ، بعد أن أعيت ثورتها كثيراً من الأمراء قبل عبد الرحمن .

هذا فى داخل الأندلس ؛ أما فى خارجها ، فقد كان فى مواجهة الناصر خطران عظيمان ، أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب . أما فى الشمال فقد كان المسيحيون قد تقووا ، وصارت لهم بعض ممالك تهاجم الدول الإسلامية وتحرز عليها انتصارات ، وتجر على المسلمين كثيراً من الشر . وكانت مملكة ليون Leon ومملكة نافارًا Navarra تمثلان هذا الخطر الشمالى .

أما فى الجنوب فقد كانت الدولة الفاطمية الناشئة قد مكنت لنفسها فى شمال أفريقيا ، وأقامت دولة قوية عاصمتها القيروان . وقد سارت جيوش الدولة الفاطمية غربًا ، واستولت على الشاطىء الإفريقى المقابل للأندلس ، وطردت الحكام الموالين لعبد الرحمن الناصر ، وأصبحت الأندلس مهددة بالخطر الفاطمى .

لكن هذا البطل الأندلسى لم يكن فى سياسته الخارجية بأقل منه فى سياسته الداخلية ، ولم تكن حملاته خارج الأندلس بأضعف من حملاته فى داخلها ؛ فقد جرد الجيوش لتأديب المسيحيين الشماليين ومن انضم إليهم من الأندلسيين الخارجين . وهذه الحملات وإن أخفق أقلها ، فقد نجح أكثرها ، وأحرز عبد الرحمن بها انتصارات عظيمة . وقد كان يقود تلك الحملات بنفسه ، فملأ قلوب أعدائه رهبة ، وأفعم جنده ورعاياه إجلالاً ومحبة .

وقد بلغ من انتصار عبد الرحمن على نصارى الشمال ، أن تعهد له بعضهم بدفع

الجزية [١] ، واستعان به بعض آخر على تولى عرش مملكته [٢] ، كما سعوا إليه يقدمون بين يديه فى قرطبة الولاء والخضوع .

وأما الخطر الفاطمى ، فقد عمل الناصر على رده بكل ما أوتى من ذكاء وأيد . فنمى الأسطول الأندلسى ، وجعله يراقب الشواطىء التى أخضعها الفاطميون ، ويحمى من عدوانهم شواطىء الأندلس . كما أرسل جيشاً كبيراً لاسترداد ما استولى عليه الفاطميون فى العدوة الإفريقية . واستطاع قواده أن يستردوا المغرب من فاس إلى المحيط ، وأن يعيدوا إلى الشاطئ الإفريقى النفوذ السياسى الأندلسى .

وبهذا استطاع عبد الرحمن أن يؤمن الأندلس من الخارج كما وحدها فى الداخل ، وأن يوسع رقعة الدولة الأندلسية ، ويبسط نفوذها ، ويقيم فى قرطبة أعظم حكومة عرفتها الأندلس فى عهدها المديد .

وقد عرفت الدول الأخرى قوة الخلافة القرطبية ، فسعت السفارات من ملوكها إلى الخليفة الأندلسى . وكان من أشهر تلك السفارات ، سفارة ملك الروم التى استقبلها الخليفة فى قصر الزهراء ، كما استقبل به ملوك ليون ونافارّا فى عظمة وجلال .

وهكذا استحق عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة ، الذى أمر أن يخاطب به بعد انتصاراته الباهرة ، وبعد أن أصبح فعلا أقوى حكام الإسلام فى ذلك الحين .

ثم مات الخليفة العظيم سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وخلفه ابنه الحكم الثانى [٣] ،

---

(١) مثل (توتا Tota) الوصية على عرش نافارا ، ويسميها العرب طوطة .

(٢) مثل (سانشو) Sancho ملك ليون . ويسميه العرب : سانجة بالسين وشانجة بالشين .

(٣) انظر فى ترجمته وأعماله وعصره :

البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٣٤٨ وما بعدها .

وكتاب العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٤ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Levi Provençal : Espana Musulmana, pp.369 ff.

الذى على الرغم من عنايته البالغة بالكتب وجمعها ودرسها والتعليق عليها ، وعلى الرغم من كلفه بالفنون والآداب ، وميله إلى العلوم والفلسفات ؛ كان لايقصر فى المحافظة على هيبة الدولة السياسية وعظمتها الحربية .

وقد ظن به بعض ملوك المسيحيين ضعفًا أول الأمر . فحاول ملكا ليون ونافارًا أن ينكثا بالعهود التى أعطياها للناصر ، ورفضا تسليم حصون كانا قد تعهدا بتسليمها للخليفة الراحل ، وانضم إليهما أمير قشتالة Castilla ، بل أغاروا على حدود الدولة الإسلامية . فأمر الحكم قواده بتعبئة الجيوش ، ثم قاد الجند بنفسه ، وضرب « فرلند » Fernand أمير قشتالة المعتدى ضربة ساحقة ، اضطرته إلى الفرار ، ثم عاد الحكم إلى قرطبة بعد أن لقن أعداءه درسًا قاسيًا .

وفى قرطبة وفد عليه الأمير « أردون » Ordono الذى كان قد خلعه « سانجة » Sancho وخلفه فى ملك ليون ، بفضل مؤازرة عبد الرحمن الناصر . وعرض « أردون » على الحكم الخضوع والولاء ، ورجاه المساعدة فى إعادته إلى عرشه بعد أن نكث « سانجة » بالعهد الذى كان قطعه للخليفة الأندلسى . وقد جهز الحكم جيشًا لإعادة « أردون » إلى عرشه انتقامًا من ملك ليون الناكث بالعهد ، ولكن هذا الملك أسرع بإرسال وفد من نبلاء بلاده وكبار أساقفتها إلى الخليفة ، ليؤكد له العزم على الوفاء بالعهد ، والتمسك بكل ما كان بينه وبين الناصر من التزامات . فأعرض الحكم عن تأييد « أردون » الذى مالبث أن مات بعد قليل .

ولكن موته شجع ملك ليون على النكث مرة أخرى ، فتجددت الحرب بين الحكم وبين هذا الملك ، ولم يقصر الحكم حربه على ملك ليون ، بل حارب كذلك ملك نافارًا وملك قشتالة ، وأخذهم الواحد بعد الآخر ، حتى اضطرهم جميعًا إلى الخضوع وقبول ما أراد من شروط للسلم . وبهذا هدمت الحصون القريبة من حصون

المسلمين ، وتعهد الملوك المسيحيون ألا يساعدوا ثواراً وألا يتحالفوا مع خارجين ، وألا يعودوا لمحاربة الخليفة .

وهكذا أمن الحكم مسيحيي الشمال ، وفرض هيبته وهيبة الدولة الإسلامية على تلك الأقاليم ، تماماً كما فعل أبوه الناصر من قبل .

أما الفاطميون ، فلم يعودوا فى أيام الحكم مصدر خطر على الأندلس ؛ فقد فتحوا مصر ، وأسسوا القاهرة سنة ٩٦٩ م ، وانتقل إليها المعز لدين الله سنة ٩٧٢ م ، فشغلوا بذلك عن الأندلس .

غير أن المعز كان قد ترك نائباً عنه على إفريقية والمغرب ، وكان الأدارسة قد دخلوا فى طاعة الفاطميين ؛ فأخذ أعوان الفاطميين يناوشون الأمراء المغاربة الموالين لحكومة الأندلس . فأرسل الحكم جيشاً إلى المغرب سنة ٩٧٢ م ، استطاع أن يحرز نصراً كبيراً على الأدارسة . وعاد إلى قرطبة سنة ٩٧٤م ومعه أمراء الأدراسة أسرى .

وظلت الأندلس حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) دولة قوية مهيبة ، شاسعة الرقعة موحدة الأقاليم ، مؤمنة الحدود ، كما كانت فى عهد عبد الرحمن الناصر ، واستحقت تلك الفترة التى سعدت بحكم الناصر والمستنصر أن تسمى بالعهد الذهبى للحكم الأندلسى .

٢ — الأندلسيون فى ظلال الرفاهية :

لم يعرف المجتمع الأندلسى وحدة كالتى عرفها فى فترة الخلافة ؛ فقد كان منذ الفتح بين عوامل للتجميع وأخرى للتفريق ؛ حتى كانت الفترة السابقة للخلافة —وهى فترة الأمير عبد الله — فوقعت الفرقة الرهيبة التى أوشكت أن تفصم عرى الوحدة بين أبناء الأندلس جميعاً . وكان من مظاهر تلك الفرقة ، أن عاد العرب يتكتلون ، وانقلب

الإسبان يتجمعون ، ورجع البربر ينفصلون ، وبرزت زعامات لهؤلاء وهؤلاء ، تؤيد الفرقة وتذكى نار العنصرية ، لتربح هى آخر الأمر الرياسة والسيطرة .

ولكن الحال تبدل فى عهد الخلافة ؛ فقد استطاع عبد الرحمن الثالث أن يعيد إلى الشعب الأندلسى وحدته ، فقضى على الزعامات العربية التى كان يتكتل وراءها من ينتمون إلى العرب من أبناء الأندلس ، وقضى كذلك على الزعامات الإسبانية التى كانت معقد أمل الخارجين على النظام من مسلمى الإسبان المعروفين بالمولدين . كذلك أراح الأندلس من الزعامات البربرية التى كانت تثور بسكان الأندلس من أهل شمال إفريقيا ، وتستقل ببعض الأقاليم الأندلسية .

وهكذا رأت العناصر المكونة للشعب الأندلسى أن الخير كل الخير فى ترك العنصرية جانبًا ، فاندمجوا فى المجتمع الأندلسى الكبير اندماجًا توحد معه هذا المجتمع وامتزجت عناصره ؛ واختفت منه — أو كادت — تلك العنصرية المختلفة ، من عربية وإسبانية وبربرية ، وبرزت بصورة واضحة قومية موحدة مؤتلفة هى القومية الأندلسية .

وقد أدت سياسة الناصر الحكيمة وانتصاراته الباهرة ، وحكمه المديد إلى شيوع الاستقرار ، واستتباب الأمن ، وانتشار الطمأنينة . وأدى ذلك كله إلى إقبال الناس على أعمالهم فى جد ونشاط وأمل ، كما أنتج هذا جميعه وفرة فى الدخل القومى ، وارتفاعًا فى مستوى المعيشة ، ورخاء للدولة والأفراد جميعًا . وقد قيل : إن إيراد الدولة زاد زيادة عظيمة حتى بلغ مايجبى بالأندلس من الكور والقرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار ، كما بلغ مايجبى من الأسواق ونحوها سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار [١] . وقيل كذلك : إن الناصر قد خلف فى بيوت المال خمسة آلاف ألف ألف (ثلاث مرات) [٢] .

---

(١) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٧ . والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٥

(٢) انظر نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١٧٧ .

وكل هذا — على ماقد يكون فيه من مبالغة — يدل على ما وصلت إليه الأندلس من الرقى الاقتصادى فى ذلك الحين .

ولم تعرف الأندلس نهضة عمرانية كالتى عرفتها فى فترة الخلافة ؛ فقد كان الناصر مولعاً بالبناء ، محباً للتشييد ، كما كان يعتقد أن البنيان يخلد ذكر الباقين ويبقى أسماءهم على الدهر . ومن هنا تم فى عهده أروع ماعرفت الأندلس من قصور ومساجد ، ووصلت العاصمة القرطبية فى فترة الخلافة إلى أوج جمالها وأناقتها وعمرانها ، فازدحمت بالقصور المشيدة . وزينت بالحدائق العديدة . وجملت بالنافورات الكثيرة ، وزودت بالحمامات الوفيرة . وقد قيل : إن مبانيها بلغت أكثر من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة ، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة . كما قيل : إن مساجدها بلغت تسعمائة ، ووصلت حماماتها سبعمائة [١] ، هذا فى وقت كانت بعض دول أوربا تعتبر النظافة رجساً من عمل الشيطان [٢] .

وكان أعظم أعمال الناصر الإنشائية ، مدينة الزهراء ، التى بناها [٣] فى شمال قرطبة ، وجعل بها قصراً للخلافة وبيوتاً لرجال الحكومة والبلاط ، ومساكن للحرس والجند ، ومسجداً للصلاة والتعليم .

كان قصر الخلافة فى هذه الضاحية القرطبية غاية فى الجلال والجمال والفن ، وقد جلب الناصر أعمدة بنائه ورخامه ، وتماثيل زينته ومواد زخرفته ، من القسطنطينية وقرطاجنة وشمال أفريقيا ، علاوة على ماأنتجته مدن الأندلس .

---

(١) انظر نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢١٣ وما بعدها ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٥ — ٣٤٦ ، وقصة العرب فى إسبانيا تأليف « استانلى لين بول » ترجمة الأستاذ على الجارم ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) انظر المصدر الأخير .

(٣) بدأ فى بنائها سنة ٣٢٥ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ . والنفح ج ٢ ص ٢٤٦) .

وكان للخليفة فى قصره بالزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب ، لكون قبته وحيطانه قد صفحت بهذا المعدن النفيس . وقد جُعل فى هذا المجلس حوض عجيب ، أقيمت عليه تماثيل من الذهب المرصع بالدر النفيس ، وهى صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة ، وكلها تمج الماء من أفواهها فى الحوض [١] .

وقد مست يد التجميل والتعمير مدنًا أندلسية أخرى غير قرطبة ، كما شمل الرخاء والأمن والرفاهية غير القرطبيين من الأندلسيين ، وعاش المجتمع الأندلسى فى فترة الخلافة عهده الذهبى من الناحية الاجتماعية ، كما عاش فى عهده الذهبى أيضًا من الناحية السياسية ؛ حتى لنرى أبرع الصور وأروع الأمثلة عن حضارة الأندلسيين وتقدمهم الاجتماعى ، قد أخذت جميعها أو أخذ أغلبها على الأقل ، من حياة أهل الأندلس فى فترة الخلافة .

٣ — نهضة الثقافة :

نهضت الثقافة الأندلسية فى فترة الخلافة نهضة شاملة ، كان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس ، بل قوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير . وليس من شك فى أن ظروف الأندلس فى تلك الفترة قد ساعدت على هذه النهضة ؛ فالوحدة والاستقلال ، والأمن والرخاء ، والتحضر والرقى ؛ كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة ، ويساعد على مستوى علمى رفيع . وقد أتيح للأندلس فى فترة الخلافة خليفتان وفرا للناس وحدة واستقراراً ، وحققا لهم أمنًا ورخاء ، ومكناهم من تحضر ورقى ؛ فأتاحا لهم كل مامن شأنه أن ينهض بثقافتهم ويرقى بعلمهم . بل إن هذين الخليفتين لم يكتفيا بتهيئة الجو للثقافة والعلم ، وإنما دفعا بالأندلس دفعًا إلى نهضتها

---

(١) اقرأ ما قيل عن الزهراء فى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ وما بعدها والبيان والمغرب ج ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

الثقافية الشاملة ، وذلك بتشجيع القادمين إلى الأندلس من علماء المشرق ، وجلب الكتب القيمة من شتى الأقاليم ، والحث على البحث والتأليف فى شتى الفنون . فالناصر قد أحسن استقبال أبى على القالى وأسند إليه تأديب ابنه الحكم ، ومكن له ليعلم الأندلسيين فى قرطبة [١] . وقد حمل القالى إلى الأندلس كثيراً من علم المشرق وأدبه ، ونقل بخاصة مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين [٢] ، مثل امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى والخنساء ، ومثل ابن أبى ربيعة وجميل وكثير والأخطل وجرير والفرزدق ، وكثير جداً غير هؤلاء وأولئك . هذا بالإضافة إلى كثير من كتب الأخبار واللغة ، مما أمد الحياة الثقافية الأندلسية فى هذه الفترة بشحنة عظيمة من الزاد الدسم .

أما الحَكَم بن عبد الرحمن ، فقد ثبت أنه لم يولع خليفة بالكتب كما أولع ، ولم يجمع أمير منها مثل الذى جمع . وقد اشتهر بمكتبته الغنية التى بلغت أربعمائة ألف مجلد [٣] . وقد كان يحرص على جمع الكتب لها ويدفع فيها أغلى الأثمان ، كما فعل مع أبى الفرج الأصبهانى ، حين وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغانى ، فبعث إليه بنسخة من كتابه قبل أن يظهر فى بغداد [٤] .

وقد كان الحكم كذلك يشجع العلماء على التأليف ، ويقترح على المؤلفين بعض الموضوعات [٥] ، ويفسح لهم مكاناً فى القصر يخلون فيه للبحث وإنجاز ماعهد إليهم

---

(١) انظر ما قيل عن قدوم القالى إلى الأندلس فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٨٤ – ٨٦ وانظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٤ .

(٢) انظر فيما حمله القالى إلى الأندلس : الفهرسة لابن خير المجلد الأول ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٣) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ – ١٨٦ ، وطبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٦ .

(٤) المقرى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٠ .

(٥) كما اقترح على الخشنى تأليف كتابه « قضاة قرطبة » وكما اقترح على الزبيدى تأليف كتابه « طبقات النحويين » .

من مؤلفات [١] . وهكذا كُتب باقتراحه وتشجيعه كثير من الكتب فى مختلف العلوم ، ولقى العلماء فى ظله كثيراً من الإقبال والتكريم . ولذلك نهضت الأندلس علمياً فى شتى الميادين . وتألق فيها نابهون فى كل فروع المعرفة التى تمثل الثقافة فى ذلك الحين .

وليس أدل على نهضة الأندلس العلمية فى فترة الخلافة ، من وفرة العلماء والمؤلفات فى أغلب فروع المعرفة ، تلك الوفرة التى لم تعرفها الأندلس من قبل والتى اتضحت معها الشخصية العلمية للأندلس واستقلت إلى حد كبير .

فى الميدان اللغوى ، نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس، وذلك بعد قدوم أبى على القالى ، الذى وفد على الأندلس سنة ٣٤٠ هـ (٩٤١ م) والذى ألف كثيراً فى الدراسات اللغوية ، وأملى على طلبته الأندلسيين كتابه « الأمالى »

وفى هذه الفترة برز عدد من الأندلسيين فى الدراسات اللغوية مثل : أبى بكر الزبيدى، الذى عمل « مختصر كتاب العين » وألف كتاب « طبقات النحويين» و« كتاب لحن العامة » وكتاب « الواضح فى العربية » وكتاب « الأبنية فى النحو» . وكان مؤدباً للأمير هشام ابن الخليفة الحكم المستنصر [٢] .

ومن الأندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية فى فترة الخلافة أيضاً أبو بكر ابن القوطية ، الذى ألف « كتاب تصاريف الأفعال » و «كتاب المقصور والممدود ». وكان ابن القوطية من كبار علماء الأندلس فى فروع علمية أخرى وخاصة التاريخ [٣] .

---

(١) كما فعل مع ابن الصفار ليؤلف كتاباً فى أشعار خلفاء بنى أمية بالمشرق (انظر جذوة المقتبس ترجمة ٥٣٣) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥١٤ ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٣٥٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٢ – ٥١٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ – ٨٩ وتاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣١٨ .

وفى الحقل التاريخى ، ظهر من علماء الأندلس فى فترة الخلافة ، أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، الذى كان يلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتاريخ . ومما ألفه فى ذلك : كتاب فى « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم » ، وآخر فى « أنساب مشاهير أهل الأندلس » ، وثالث عن « كبار الموالى الأندلسيين » ، ورابع فى « صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها » . وقد ضاعت هذه الكتب كلها ، ولم يصل إلينا من مؤلفاته التاريخية إلا قطعة فى صفة الأندلس ، وهى مترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان « كرونيكا دِلْ مُورو رازيز » [١] Cronica del moro Rasis أى تاريخ المغربى الرازى .

كذلك كان من مؤرخى هذه الفترة . أبو بكر بن القوطية . الذى سبقت الإشارة إليه كلغوى [٢] . وقد خلف لنا فى التاريخ كتابه المشهور « تاريخ افتتاح الأندلس » [٣] وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله .

وروح الكتاب تتفق مع روح ابن القوطية كحفيد للقوط أولا ، وكمولى لبنى أمية ثانيًا ؛ فنحن نراه يدخل فى رواياته عنصراً قوميًّا كأخبار أرطباس مع الصميل ابن حاتم . وهى أخبار تظهر الأمير القوطى فى صورة الرجل الموهوب الحميد الخلق ، على حين تصور الزعيم العربى أقل كثيراً من صورة الأمير القوطى . وكذلك نراه يتحدث عن الثائرين على العرب والخارجين عليهم من ذوى الأصول الإسبانية ، كمروان

---

(١) انظر : Palencia : La literatura arabigo-espanola, p. 144 .
وانظر تاريخ الفكر الأندلسى (وهو ترجمة الكتاب السابق) ص ١٩٧ .

(٢) وهو حفيد سارة القوطية . حفيدة غيطشة ملك القوط قبل « رذريق » وكانت سارة قد لجأت إلى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك فى دمشق لتشكو ظلماً وقع عليها ، فكرمها الخليفة وزوجها أحد مواليه ، فكان من سلالته عالمنا ابن القوطية . انظر ترجمته فى : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى . رقم ١٣١٨ . وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٨١٢ — ٨١٣ . وفيما كتبه عنه النفح ج ٢ ص ٨٥ — ٨٦ .

(٣) وقد نشره « جايانجوس » وترجمه (ربيرا) إلى الإسبانية سنة ١٩٢٦ ، كما كتب مقدمة دقيقة له.

الجليقى وعمر بن حفصون، كما يورد أخباراً عن الشاعر غِرْبيب المتعصب لقومه مستعربى طليطلة ، ثم نراه يحسن القول عن بنى أمية فى أغلب الأحايين ، وهذا أثر من آثار ولائه لهم [١] .

ومن الآثار التاريخية التى ظهرت فى تلك الفترة أيضاً كتاب : «أخبار مجموعة»[٢] وهو لمؤلف مجهول ، ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد عبد الرحمن الناصر .

وروح الكتاب فيها ميل إلى العرب عامة وإلى قريش خاصة ، وإلى الأمويين من قريش بصفة أخص .

وقد ألف الكتاب فى عهد عبد الرحمن الناصر كما يرى الأستاذ « ريبرا » خلافاً للأستاذ « دوزى» الذى يرى أنه من تراث القرن الحادى عشر الميلادى [٣] .

وكان من المؤرخين كذلك فى هذه الفترة ، عريب بن سعد ، الذى كان يعمل فى خدمة الحكم المستنصر . ومن أشهر كتبه « صلة تاريخ الطبرى» .وكان هذا المؤرخ الأندلسى طبيباً أيضاً ، ومن آثاره فى الطب : كتاب فى « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود » وهو مخطوط بمكتبة الإسكوريال [٤] .

كذلك اشتهر بكتابة التراجم بعض علماء تلك الفترة ، مثل أبى عبد الملك بن عبد البر القرطبى ، الذى ألف كتاباً عن « فقهاء قرطبة » [٥] ، هو من المصادر الرئيسية

---

(١) انظر : Julian Ribera : Prologo
(وهى المقدمة التى صدر بها الترجمة الإسبانية لكتاب : تاريخ افتتاح الأندلس) .

(٢) نشر الكتاب وترجمه إلى الإسبانية .« لافونتى ألكنترا » سنة ١٨٩٧ .

(٣) انظر : المقدمة التى كتبها « ريبرا » لكتاب تاريخ افتتاح الأندلس .
وانظر كذلك مقدمة أخبار مجموعة .

(٤) انظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

(٥) انظر : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى ترجمة رقم ١٢٠ .

التى اعتمد عليها ابن الفَرَضىّ فيما بعد ، حين ألف كتابه « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » [١] . كذلك كان من كتاب التراجم فى فترة الخلافة ، أبو عثمان بن عبد البر الكشكيانى ، الذى صنف كتابًا عن « الفقهاء والقضاء بقرطبة والأندلس » [٢]

وممن عرفوا بكتابة التراجم فى تلك الفترة أيضًا ، محمد بن هشام المروانى ، الذى صنف كتابًا فى « أخبار الشعراء » [٣] .

ولكن ألمع شخصية بين كتاب التراجم فى فترة الخلافة ، هى شخصية أبى عبدالله الخُشَنى [٤] ، صاحب كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » [٥] ، الذى ترجم فيه للقضاة فى العاصمة الأندلسية من الفتح حتى سنة ٣٧٥ هـ .

والكتاب يضم إلى جانب التراجم العديدة — التى تعرفنا بجمهرة من أهل القضاء والعلم فى الأندلس — معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية .

ويقول عنه الأستاذ « ريبرا » : إن هذا الكتاب يضعنا فى قلب قرطبة ، وإن أخباره مصوغة فى قالب من الواقعية التى لايبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ والأدب [٦] .

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٩ ، ١٣٠ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٦٣ ، وتاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٦٧ .

(٣) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) الخشنى أصله من القيروان ، وقد وفد على الأندلس صغيراً ، وتخرج على بعض علمائها ثم دخل فى خدمة الحكم المستنصر ، وألف له كثيراً من الكتب . اقرأ عنه فى تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى ، ترجمة رقم ١٤٠٠ وفى : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٤١ .

(٥) نشره « ريبرا » وترجمه إلى الإسبانية سنة ١٩١٤ . وأعاد السيد عزت العطار نشره . (بلا ترجمة) سنة ١٩٥٤ .

(٦) انظر حديث « ريبرا » عن الكتاب فى المقدمة التى صدر بها النشرة والترجمة اللتين أذاعهما سنة ١٩١٤ ، وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٧٦٧ — ٧٧٠ .

وأما فى التفسير والحديث ، فقد نبغ كثيرون مثل ابن محاسن ، عثمان بن محمد ، الذى اشتهر بالتفسير [١] . ومثل ابن القوطية ، الذى سبق الحديث عنه كلغوى ومؤرخ [٢]

كذلك اشتهر من علماء الأندلس فى تلك الفترة ، ابن الحجام يعيش بن سعيد ، الذى ألف مسند حديث بأمر الحكم المستنصر [٣] .

وأما فى الفقه ومذاهبه ، فقد برع عديدون ، وكان أكثرهم من أعلام المذهب المالكى الشائع بين الأندلسيين على ما هو معروف . ومن هؤلاء الذين نبغوا فى الفقه المالكى خلال فترة الخلافة : عبد الله بن أبى دليم ، الذى صنف كتاب « الطبقات فيمن روى عن مالك من أهل الأمصار »[٤] ، ومنهم يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثى [٥] . وهو حفيد الفقيه الأندلسى المعروف ، يحيى بن يحيى الليثى . ومنهم أيضًا أبوبكر بن القوطية الذى عرفناه لغويًا ومؤرخًا ومحدثًا .

على أن هناك فقهاء آخرين نبغوا فى فقه غير الفقه المالكى ؛ وكان من أسباب ذلك ، تلك الحرية الفكرية التى أتيحت للعلماء فى فترة الخلافة . فقد عُرف بالفقه الشافعى : عثمان بن أبى سعيد الكنانى [٦] ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم [٧] ، وأحمد ابن عبد الوهاب بن يونس ، الذى كان من المترددين على الحكم المستنصر [٨] . كذلك

---

(١) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ترجمة رقم ٩٠١ .

(٢) اقرأ عنه فى المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٣١٨ .

(٣) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ، ترجمة رقم ١٦١٢ . وجذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٩١٥.

(٤) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ، رقم ٧٠٧ . وتاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٢٠ .

(٥) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ، ترجمة رقم ١٥٩٧ .

(٦) المصدر السابق ، رقم ٨٩٢ .

(٧) اقرأ عنه فى : تاريخ العلماء لابن الفرضى ، ترجمة رقم ٢٨٠ ، وفى جذوة المقتبس للحميدى ، ترجمة رقم ٣٢٢ .

(٨) اقرأ عنه فى : تاريخ العلماء لابن الفرضى ترجمة رقم ١٥٤ .

عرف من فقهاء الظاهرية : منذر بن سعيد البلوطى ، وكان قد درس فى المشرق على كبار العلماء ، وعندما عاد إلى الأندلس ، أنكر تقليد مذهب مالك ؛ وكان يميل إلى مذهب داود بن خلف الظاهرى ، ويحتج له . ولقد كان يلى قضاء لاردة وطُرْطُوشة ، ثم نال إعجاب الناصر ولفت نظره بخطبته البليغة فى حفل استقبال سفير القسطنطينية ، فولاه الخليفة الصلاة والخطابة بمسجد الزهراء ، ثم ضم إليه بعد ذلك قضاء قرطبة[١] . والذى بلغ إليه منذر بن سعيد — على ظاهريته ومخالفته للمذهب المالكى الرسمى — يدل على مدى ماساد الأندلس فى فترة الخلافة من حرية فكرية ، وما تمتع به العلماء من استقلال فى الرأى مهما خالف هذا الرأى مذهب الحاكمين .

وأما الفلسفة ، فقد أخذت مكانها مرة أخرى بعد أن حورب ابن مسرة فى الفترة السابقة ؛ فعادت مدرسته من جديد ، وشاعت مبادئه وآراؤه ، وعُرف بالانتماء إلى المدرسة المَسرية كثير من أهل الفكر الأندلسيين ، ومن هؤلاء : طريف الروطى ، ومحمد بن مفرج المعافرى ، ورشيد بن محمد ، وأبان بن عثمان . وقد كان الفضل فى عودة مدرسة ابن مسرة إلى نشاطها يرجع إلى روح التسامح التى سيطرت على فترة الخلافة ، وخاصة أيام الحكم المستنصر[٢] .

وأما الطب ، فقد ازدهر فى تلك الفترة ، ونبغ فيه أعلام من الأندلسيين . وقد كان من مهرة الأطباء فى تلك الفترة : سعيد بن عبد ربه ، الذى كانت له طريقة خاصة فى علاج الحميات[٣] . وأحمد بن يونس وأخوه عمر ، اللذان عُرفا بالمهارة فى تحضير الأدوية والعلاج ، وخاصة علاج العين[٤] . وغير هؤلاء كثيرون ممن عرفوا أيام الناصر

---

(١) اقرأ ترجمته وبعض أخباره فى : المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٤٥٤ ، وفى نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٥ ، ٢٦٦ — ٢٦٩ ، ٢٣٠ — ٣٣٣ .

(٢) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٣٠ .

(٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٤٦ .

(٤) اقرأ عنهما فى : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ١٢٤ ، وفى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٤١ .

والمستنصر [١] وذاعت شهرتهم ، حتى لقد كان بعض ملوك المسيحيين يلجأون إلى أطباء الأندلس ، لعلاج ما يستعصى من أمراضهم [٢] .

وأما الرياضيات فقد نبغ فيها كثيرون ، مثل عبد الله بن محمد المعروف بالسرى والذى كان الحَكَم يعظمه . ومثل أبى بكر بن عيسى ، الذى كان يجلس للتعليم أيام الحَكَم ، وكان مقدمًا فى الهندسة والعدد والنجوم [٣]

وهكذا نرى عدة ظواهر للحياة الثقافية فى الأندلس خلال فترة الخلافة، أولاها : تلك المشاركة الواضحة فى أكثر فروع المعرفة ، بل ذلك النبوغ الملموس فى أغلب ألوان الثقافة ؛ حتى لنرى من أبناء الأندلس مبرزين فى شتى العلوم والفنون ، ونجد لهم مؤلفات فى مختلف فروع المعرفة . والظاهرة الثانية للحياة الثقافية فى فترة الخلافة : شيوع الحرية الفكرية بصورة واضحة ، وتشجيع العلماء وإكبارهم ، على اختلاف ميولهم ومعارفهم ومذاهبهم . والظاهرة الثالثة المتصلة بالحياة الثقافية لتلك الفترة : إقبال كثير من الأندلسيين على العلوم الفلسفية والطبيعية ؛ حتى لتعد تلك الفترة بحق من الفترات المعدودات ، التى أتيح فيها للثقافة الأندلسية أن تتصل اتصالا قويًا بالفلسفات والطبيعيات .

وهناك بعد ذلك ظاهرة رابعة جديرة بالاعتبار ، وهى : الاتصال ببعض المعارف الإغريقية واللاتينية ،عن طريق الترجمة . فقد ترجمت عن هاتين اللغتين بعض الكتب مثل كتاب « ديسقوريدس » Dioscorides فى الحشائش والأدوية ، وكتاب « هروسيس» Orosius فى التاريخ . وقد وصل هذان الكتابان إلى الأندلس ضمن هدية بعث بها

---

(١) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) انظر : قصة العرب فى إسبانيا « ترجمة الجارم » ص ١٠٩ ، ١١٠ .
وانظر : Palencia, Historia, p. 47. .

(٣) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٨ .

إمبراطور القسطنطينية « أرمانيوس » إلى عبد الرحمن الناصر . وكان الكتاب الأول مكتوبًا بالإغريقية ، وقد ترجمه فى الأندلس راهب يسمى « نيقولا » قد أرسله الإمبراطور بناء على طلب الناصر . أما الكتاب الثانى فكان مكتوبًا باللاتينية ، وقد ترجمه فى الأندلس قاضى النصارى بقرطبة ، وقاسم بن أصبغ الأندلسى [١] . ولا يبعد أن يكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن هاتين اللغتين كما حصل لهذين الكتابين ؛ فقد توفرت لتلك الفترة كل الإمكانيات التى تشجع على ذلك ، من حرية فكرية ، وتحمس لجلب الكتب ، ووجود من يستطيعون الترجمة .

وأخيراً هناك ظاهرة خامسة تتصل بالحياة الثقافية لتلك الفترة ، وهى ظاهرة جديرة بالملاحظة ، لما لها من صلة وثيقة ببعض ماسنرى من ظواهر أدبية . تلك الظاهرة هى : ظهور الروح القومية الأندلسية فى الحياة الثقافية . وقد بدا ذلك واضحًا فى العناية بجمع تراث الأندلسيين ، وكتابة تاريخ الأندلس ، والترجمة لأعلام هذه البلاد فى شتى الميادين ، من شعراء وعلماء وقضاة ونحويين ، وغير هؤلاء وأولئك من أدباء ومفكرين . والمتتبع لمؤلفات تلك الفترة لاتخطئه تلك الملاحظة ، فسيرى اتجاهًا واضحًا إلى كل ما هو أندلسى ؛ ففى التاريخ الأندلسى يكتب ابن القوطية وغيره ، وفى رجال الأندلس يكتب خالد بن سعد [٢] ، وفى قضاة قرطبة يكتب الخُشَنِى ، وفى شعراء الأندلس تُكتب عدة كتب ، منها فى شعراء إقليم إلبيرة فقط نحو عشرة أجزاء [٣] ، كما يكتب ابن فرج كتابه « الحدائق » الذى يعارض فيه كتاب « الزهرة » لمحمد بن داود

---

(١) انظر فى دخول هذين الكتابين إلى الأندلس ، وترجمة الأول منهما : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٤٧ : وانظر فى ترجمة الثانى : ابن خلدون ج ٢ ص ٨٨ .
وانظر كذلك : طبقات الأطباء لابن جلجل تحقيق فؤاد السيد (المقدمة) .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ١ ترجمة رقم ٣٩٨ .

(٣) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١٣٣ .

الإصبهانى ويزيد عليه ؛ فقد ذكر ابن داود مائة باب فى كل باب مائة بيت ، أما ابن فرج فقد ذكر مائتى باب فى كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئاً[١].

٤ — نهضة الأدب :

نهض الأدب الأندلسى فى فترة الخلافة نهضة عظيمة ، ساعد عليها ما كان من رقى سياسى وتفوق اجتماعى ونهوض ثقافى . وقد بدت نهضة الأدب الأندلسى خلال تلك الفترة فى مظاهرة عديدة ؛ منها ظهور بعض الاتجاهات الجديدة فى الشعر ، وبعض الأنواع الجديدة فى النثر ، هذا بالإضافة إلى تطور الاتجاهات المعروفة ، وازدهار الأنواع المألوفة ، ووفرة النتاج الأدبى وخصوبته وتنوعه ، وشيوع الأدب بين الأندلسيين شيوعاً جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية فى ذلك الحين . وسوف يتضح كل ذلك بتناول نوعى الأدب تناولا تفصيلياً .

أولا — الشعر :

يمكن أن يلاحظ دارس الشعر الأندلسى فى تلك الفترة عدة ظواهر ، منها مايتصل بالاتجاهات الشعرية وما طرأ عليها من زيادة أو تطور ، ومنها ما يتعلق بالأفكار الشعرية وصلتها بالنهضة العلمية التى أظلت الأندلس فى ذلك الحين ، ومنها مايرتبط باللغة الشعرية وعلاقتها بالحياة اللغوية التى كان يحياها الأندلسيون فى تلك السنين ؛ ثم منها مايتصل بدور الشعر كفن يعبر عن الحياة ، ويؤدى وظيفة حيوية فيها . أما من حيث الاتجاهات الشعرية ، فأول ما يلاحظ هو :

(أ) ظهور الاتجاه المحافظ الجديد :

ويقصد به هذا الاتجاه الشعرى الذى كان قد ظهر فى الشرق كرد فعل للاتجاه المحدث الذى تزعمه أبو نواس ، والذى خرج بالشعر العربى عن كثير من تقاليده ؛

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ١٧٥ .

فجاء هذا الاتجاه المحافظ الجديد Neo clasico ـ ليعيد الشعر العربى إلى طبيعته العربية ، وذلك بالاقتراب من التقاليد الشعرية المأثورة ، والتخفيف من تلك الثورة المتمردة التى لجأ إليها المحدثون ، كل ذلك دون وقوف أو جمود عندما كان عليه الشعر القديم من بساطة وسذاجة وبداوة ، بل مع سير وتطور يفيدان الشعر مما وصلت إليه العقلية العربية من رقى ، ومما بلغته الثقافة العربية من نهوض ، ومما نعم به المجتمع العربى من حضارة .

ومن هنا جاء هذا الاتجاه محافظاً من جانب ومجدداً من جانب ؛ فهو محافظ فى منهج القصيدة ولغتها وموسيقاها ، ثم فى روحها وأخلاقياتها إلى حد كبير . وهو مجدد فى معانى الشعر وصوره ، ثم فى أسلوبه وجمالياته إلى درجة بالغة [١].

فمن حيث المنهج ، يسير أصحاب هذا الاتجاه غالباً على الطريقة القديمة . فى البدء ببكاء الأطلال أو الافتتاح بالغزل التمهيدى ، ثم الانتقال إلى الغرض الأساسى الذى قد يُسبق بوصف رحلة الشاعر ، وقد يتبع بالفخر بشعره .

ومن حيث اللغة يفضل أصحاب هذا الاتجاه الأسلوب القديم ، فى الميل إلى جزالة اللفظ وفخامة العبارة .

ومن حيث الموسيقى الشعرية ، يؤثر أصحاب هذا الاتجاه الذوق القديم ، فى حب الأوزان الطوال ذات النغم الوقور ، والقوافى القوية ذات الرنين الرزين .

ومن حيث روح الشعر العربى وأخلاقياته ، يغلب على أصحاب هذا الاتجاه البعد عن التطرف المتمرد وتلك الثورة الجامحة ، التى كانت تسخر من التقاليد وتجرح المواضعات ، كما يغلب على أصحاب هذا الاتجاه أيضاً البعد عن الإفراط فى المجون والمجاهرة بالعصيان والفخر بارتكاب الرذائل [٢].

---

(١) لتكوين فكرة مفصلة عن خصائص هذا الاتجاه اقرأ : تاريخ الشعر العربى لنجيب البهبيتى ص ٤٨٥ وما بعدها ، وأبو تمام الطائى للمؤلف نفسه ص ١٨٤ وما بعدها ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى لشوقى ضيف ص ١٠٧ وما بعدها ، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٨٥ .

أما من حيث معانى الشعر وصوره ، فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يسيرون مسيرة المجددين ، فى البحث عن المبتكر الرائع أو الغائب الطريف أو البعيد الشارد . ومن هنا كانوا يغوصون غوصاً على المعانى حتى يستخرجوها ، كما كانوا يشققونها حتى يستوعبوا كل أجزائها ، بل إنهم كانوا يعتصرونها ويقطرونها حتى يحصلوا على أدق عناصرها وأهم محتوياتها .

وأما من حيث الأسلوب وجمالياته ، فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يأخذون كذلك بطريقة المحددين ، فى تجميل الصياغة بألوان من البديع وتوشيتها بصنوف من المحسنات ، وقد كان من أبرز تلك المحسنات المقابلة والطباق والجناس والتكرار .

وقد كان أبو تمام الشاعر المشرق الكبير ، من أوائل من ساروا فى هذا الاتجاه ، وتبعه بعد ذلك البحترى وآخرون ممن عاصروهما أو جاءوا بعدهما ، حتى وصل هذا الاتجاه إلى غايته بعد ذلك مع أبى الطيب المتنبى ، الذى يمكن أن يعتبر قمة هذا الاتجاه المحافظ الجديد [١] .

وقد دخلت أصول هذا الاتجاه إلى الأندلس فى الفترة السابقة ؛ فقد حدثنا الرواة أن نفراً من الأندلسيين ممن عاشوا فى فترة صراع الإمارة ، قد اتصلوا بأبى تمام ، وقرأوا عليه شعره ، ثم عادوا إلى الأندلس حيث أدخلوا هذا الشعر . وقد كان من هؤلاء أبو عثمان بن المثنى النحوى [٢] ، ومؤمن بن سعيد الشاعر [٣] . كذلك

---

(١) درج الباحثون على تسمية هؤلاء الشعراء بالمحدثين ، وهى تسمية عامة تطلق على الشعراء المجددين من أول بشار ثم أبى نواس ، إلى أبى تمام ومن عاصره وجاء بعده . ولما كان اتجاه الشعراء المجددين من أيام أبى تمام ومن سار فى طريقه يخالف اتجاه المجددين من أيام بشار ومن حذا حذوه ، آثرت أن يقصر اسم محدث على الاتجاه السابق الذى راده بشار وانتهت غايته إلى أبى نواس ، وأن يطلق اسم محافظ جديد على الاتجاه اللاحق الذى بدأه أبو تمام وانتهت غايته إلى أبى الطيب .

(٢) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ترجمة ٢٤٩ ، والمغرب ج ١ ص ١١٢ .

(٣) انظر : المغرب ج ١ ص ٣٢ .

قد عرفنا ماكان من أبى اليسر الرياضى العالم الرحالة ، وإدخاله إلى الأندلس أشعار أبى تمام والبحترى فى الفترة السابقة [١] .

ومع هذا لانكاد نرى أثراً لظهور هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى أشعار الأندلسيين خلال فترة صراع الإمارة ، على حين نجد كثيراً من الآثار لظهوره فى فترة الخلافة التى نسوق عنها الحديث . ولعل السبب فى ذلك هو غلبة الاتجاه المحدث فى الفترة السابقة غلبة لم تترك حينئذ مكاناً للاتجاه المحافظ الجديد . وإنما غلب الاتجاه المحدث فى الفترة السابقة ، لما سبقت الإشارة إليه من أنه كان أكثر ملاءمة للتعبير عن واقع الأندلسيين الجديد المليء بالثورة والتعلق بالمظاهر الحضارية المحدثة .

وإنما ظهر هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى فترة الخلافة ، لأنه اتجاه مرتبط كثيراً بالاستقرار الحضارى والتعقل الاجتماعى والهدوء الثورى [٢] ؛ فهو قد ظهر فى المشرق منذ أوائل النصف الثانى من العصر العباسى الأول ، بعد أن هدأت حدة الانبهار باللقاء الأول مع المستحدثات الحضارية ، وبعد أن شبع شعراء القرن الثانى ثورة ولهواً ومجوناً ، وبعد أن جاء القرن الثالث وقد ألف المجتمع العربى الحضارة ومستحدثاتها ، ولم يعد يجن بها فيفقد اتزانه ، كما فعل من قبل جيل أبى نواس .

وقد كان المجتمع الأندلسى فى فترة الخلافة قد ألف الحضارة كذلك ، واستنفد انبهاره ودهشته بالمستحدثات فى الفترة السابقة ؛ ولهذا بدأ كثير من الأندلسيين يهتمون بالاتجاه الشعرى المحافظ الجديد ويجدون فيه طريقاً فنياً ملائماً للتعبير عن حياتهم المتحضرة المستقرة المتعلقة .

ولعل من مظاهر هذا الاهتمام ما ذكره بعض الرواة من عناية الخليفة عبد الرحمن

---

(١) ارجع إلى صفحة ١٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٨٥ .

الناصر بشعر أبي تمام وتكليفه جماعة من العلماء والأدباء بانتساخه [١] .

ولعل من مظاهر هذا الاتجاه كذلك مانراه من إقبال بعض مؤلفي فترة الخلافة على أشعار أعلام هذا الاتجاه من المشارقة ، كما فعل ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، حيث أورد شواهد عديدة من أشعار أبي تمام والبحترى وابن المعتز .

وليس من شك فى أن دخول ديوان المتنبي إلى الأندلس فى فترة الخلافة ، كان من أهم العوامل التى زادت من اهتمام الأندلسيين بهذا الاتجاه المحافظ الجديد . فالمتنبي كان من أشهر شعراء العربية فى عصره ، وكان اسمه يجلجل فى المغرب كما كان يملأ الأسماع والقلوب فى المشرق ؛ فدخول شعره إلى الأندلس فى فترة الخلافة ، قد أثار اهتمام الأندلسيين بالاتجاه الشعرى الذى يسير فيه ، وبالمذهب الفنى الذى يأخذ به .

وقد كان دخول ديوانه إلى الأندلس ، عن طريق أهل المغرب الإسلامى ممن اتصلوا بأبي الطيب فى المشرق ورووا شعره هناك ، ثم دخلوا به إلى الأندلس .

وفى مقدمة هؤلاء الذين نقلوا شعر المتنبي إلى الأندلس ، زكريا بن الأشج وهو جزائرى الأصل ، كان قد التقى بأبي الطيب خلال إقامته بمصر ، ودرس عليه ديوانه ، ثم رحل إلى الأندلس حيث أذاع هذا الديوان [٢] .

ويبدو أن هذا الاتجاه المحافظ الجديد قد بدأ يطغى على الاتجاه القديم ، ويبدو كذلك أن الجمهور الأندلسى المثقف أصبح يؤثر هذا الاتجاه ويعتبره الصورة المثلى للشعر التقليدى ، ويؤيد ذلك مايروى الزبيدى من أن الشاعر الأندلسى ابن يحيى الريحانى ، قد نظم قصيدة رثاء بناها على مذاهب العرب ، وخرج فيها عن مذاهب المحدثين [٣]

---

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدى ص ٣٥٦ .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ترجمة ٤٥٥ .

(٣) يستعمل الزبيدى اصطلاح المحدثين هنا بالمعنى العام الذى درج عليه الباحثون ، أى بما يشمل الاتجاه الذى نسوق عنه الحديث .

فلم يرضها العامة [١] .

وهكذا ظهرت فى فترة الخلافة أشعار أندلسية تسير فى هذا الاتجاه المحافظ الجديد وتبدو فيها خصائصه فى المنهج والروح ، واللغة والموسيقى . والأفكار والصور ، والصياغة والأسلوب . بل إن بعض أشعار الأندلسيين قد تأثرت بأشعار أعلام هذا الاتجاه من المشارقة ؛ فجاءت حينا وفيها ومضات من ذكاء أبى تمام فى تقطير المعانى والاهتمام بالبديع ، وحينًا نفحات من روح البحترى فى تأليف الصور والعناية بالبيان ؛ ثم فيها مرة وثبات من ذهنية ابن الرومى فى تحليله وتفصيله ، واستقصائه واحتجاجه ؛ ومرة لمسات من أناقة ابن المعتز ، فى تشبيهاته المترفة ، وصوره المفضضة المذهبة ؛ وأخيراً فيها قبسات من عبقرية أبى الطيب فى سبره للنفوس وتحليله للمشاعر وبلورته للتجارب .

على أن ذلك لم يكن — فى الغالب — تقليداً من الأندلسيين لهؤلاء الأعلام المشارقة ؛ وإنما كان إعجابًا بالاتجاه الشعرى أولا ، ورغبة فى إثبات مقدرتهم وتفوقهم ثانيًا . وليس أدل على عدم التبعية والتقليد ، من أن الشاعر الأندلسى كان يجاهر بموازنة نتاجه بنتاج سابقه المشرقى ، حين يعالج موضوعًا عالجه ، أو يورد فكرة أورد مثلها ، أو يؤلف صورة رسم نظيرها .

وهذا ابن عبد ربه مثلا ، يورد نماذج لأبى تمام وغيره من أعلام شعراء المشرق ، ثم يورد أشعاراً له فى نفس الموضوعات أو مع بعض الأفكار المتشابهة والصور المتقاربة [٢] ، وهو يشير بهذا العرض إلى مقدرته كشاعر أندلسى ، ويحاول إثبات تفوقه على هؤلاء الأعلام ، بل إنه أحيانًا يصرح بهذا ، فيعلق بعد إيراد نموذجه بما يدل على قصده إلى إثبات التفوق [٣] . فالمسألة إذاً لم تكن تبعية أوسرقة ، وإنما كانت معارضة وتحدياً

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدى ص ٣٩٩ .
(٢) انظر : العقد الفريد فى كثير من فصوله .
(٣) انظر : العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

وليس معنى ذلك أن الأندلسيين لم يتأثروا بفن سابقيهم ومعاصريهم من المشارقة ؛ فالحق أنهم تأثروا إلى أبعد حد ، ولكن هذا التأثر كان فى الغالب تأثراً بالمذهب وتعلقاً بالاتجاه ، كما كان فى أكثر الأحيان تأثر الأصلاء الواعين ، ذوى الشخصية المتفتحة القوية ، التى تضيف إلى ماتتأثر به كثيراً من ذاتها وفنها فتغنيه وتنميه .

وقد رأينا أن أهم جوانب هذا الاتجاه المحافظ الجديد أربعة ، وهى جانب المعانى والصور ، وما يجب أن تكون عليه من طرافة وغرابة وجدة ، قد تستدعى توليداً أوتشقيقاً أو تقطيراً ، بل قد تستدعى المنطقة والتحليل ، والاحتجاج والاستدلال . ثم جانب الأسلوب ، وما ينبغى أن يحمل به من ألوان البديع وصنوف المحسنات ، وخاصة الجناس والطباق والمقابلة والتكرار . ثم جانب منهج القصيدة وما يغلب أن يتبع فيه من البدء ببكاء الأطلال ، أو الغزل التمهيدى ، ثم الانتقال إلى الغرض الأساسى ، ثم الانتهاء بختام كثيراً مايكون فخراً بالشعر .

وأخيراً جانب اللغة والموسيقى ، وما يغلب أن يراعى فيه من الجزالة والفخامة والجلال .

وفيما يلى عرض لبعض النماذج التى تؤيد ظهور هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى الشعر الأندلسى خلال فترة الخلافة ، كما تؤيد معرفة الشعراء الأندلسيين بآثار إخوانهم المشارقة من أعلام هذا الاتجاه ، وتأثرهم بهم تأثراً لم تلغ معه شخصيتهم الأندلسية .

فمن النماذج المتصلة بجانب المعانى والصور ، قول ابن عبد ربه الأديب الأندلسى فى القلم :

بكفه ساحر البيان إذا ... أداره فى صحيفة سحرا
ينطق فى عجمة بلفظته ... نَصَمُّ عنها ونسمع البصرا
نوادر يقرع القلوب بها ... إن تستبنها وجدتها صورا
نظام دُرِّ الكلام ضمَّنه ... سلكاً لخط الكتاب مستطرا

إذا امتطى الخنصرين أذكر من ... سحبان فيما أطال واختصرا
يخاطب الغائب البعيد بما ... يخاطب الشاهد الذى حضرا
ترى المقادير تستدفّ[١] له ... وتنفذ الحادثات ما أمرا
شَخْتٌ[٢] ضئيل لفعله خطر ... أعظِم به فى ملمة خطرا
يَمجُّ فكّاه ريقة صغرت ... وخطبها فى القلوب قد كبرا[٣]

فابن عبد ربه يعالج نفس الموضوع الذى عالجه أبو تمام حين قال فى القلم :

لك القلم الأعلى الذى بشباته ... يصاب من الأمر الكلى والمفاصلُ
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه ... وأرْىُ الجنى اشتارته أيد عوامل[٤]
له ريقة طَلٌّ ولكنّ وقعها ... بآثاره فى الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الجلىّ وأقبلت ... أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ... ضَنىً[٥] وسمينا خطبه وهو ناحل[٦]

• • •

(١) تستدف تسهل وتستقيم .
(٢) شخت : دقيق ضامر من غير هزال .
(٣) وردت هذه الأبيات فى العقد ج ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٤) الأرى : العسل ، والجنى ما يجنى والعسل أيضاً . واشتارته : استخرجته .
(٥) الضنى فى الأصل . المرض المخامر ، الذى كلما ظن البرء منه عاد من جديد .
(٦) وردت هذه الأبيات فى ديوان أبى تمام ص ٢٥٧ . وذكرها ابن عبد ربه فى العقد ج ٢ ص ١٧٤ .

وليس يخفى سير الشاعر الأندلسى فى نفس الاتجاه الذى سار فيه أبو تمام ، من حيث الغوص على المعنى الغريب ، والجهد فى تأليف الصورة الطريفة . بل ليس يخفى تناول الشاعر الأندلسى لبعض معانى أبى تمام وصوره ، ومحاولة تجويدها بالإضافات والتعديلات ، مما وفق فيه حينًا وأخفق حينًا آخر .

فالقلم عند أبى تمام :

فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجلُ

فهو ناطق فى فصاحة إذا ركب أصابع الكاتب وبدأ يخط ، وهو أخرس أعجم إن كان راجلا غير ممتط لأصابع الكاتب . أما القلم عند ابن عبد ربه ، فإنه :

ينطق فى عجمة بلفظته نَصَمٌ عنها ونُسمع البصرا

أى أنه ناطق فى عجمته لاناطق إذا ركب وأعجم إذا لم يركب كقلم أبى تمام . ثم هو بعد ذلك ناطق عجيب ومتحدث من نوع غريب ؛ لأنه يسمع بالبصر لا بالسمع .

والقلم عند أبى تمام ، يمتطى الأصابع الخمس ، أما عند ابن عبد ربه ، فيمتطى الخنصرين فقط . وهذا أقرب إلى الدقة . ثم هو عند ابن عبد ربه :

إذا امتطى الخنصرين أذكر من سحبان فيما أطال واختصرا

فهو فارس فى ميدان البلاغة ، حيث يُذكر بفارس بلاغى هو سحبان . أما القلم عند أبى تمام فهو :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهى حوافلُ

أطاعته أطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل

فهو ليس فارسًا فى ميدان البلاغة ، وإنما هو فارس فى ميدان الطعن والضرب ، فأطراف القنا تطيعه ، والجيوش تتهاوى أمامه كما تتهاوى الخيام أمام العاصفة .

ويلاحظ على بيت أبى تمام أولا عدم تلاؤم أجزاء الصورة فى البيت الأول ، وهى صورة الراكب الذى تفرغ عليه الشعاب الحوافل ؛ ويلاحظ ثانيًا البعد الشديد بين الوصف والموصوف ، فالمتحدث عنه قلم ، وقد وصف بأنه فارس تطيعه أطراف القنا وتقوض لنجواه الجيوش تقويض الخيام . وليس من شك فى أن تحويل القلم هكذا إلى فارس حقيقى ، أبعد عن الواقع من تصوير ابن عبد ربه له ، بأنه فارس فى ميدانه الطبيعى ، ميدان البلاغة .

وإذا رأيت قلم أبى تمام :

رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ضَنِىٌّ وسمينا خطبه وهو ناحل

وأما القلم عند ابن عبد ربه ، فهو :

شخت ضئيل لفعله خطر أعظم به فى ملمة خطرا

فكلا القلمين ضئيل ولكن أثره ضخم ، غير أن قلم أبى تمام ناحل وخطره سمين ، وهذه — كما هو واضح — زيادة مفسدة ، قد دفع أبا تمام إليها حبه الشديد للمقابلة ، مما ورطه فى وصف الخطب بالسمن .

والقلم عند أبى تمام :

له ريقة طَلٌّ ولكنّ وقعها بآثاره فى الشرق والغرب وابل

أما القلم عند ابن عبد ربه فإنه :

يمُجُّ فكأنّه ريقة صغرت وخطبها فى القلوب قد كبرا

فكلا القلمين يمج ريقة قليلة ، لكنها عظيمة الأثر . غير أن أبا تمام جعل هذه الريقة طلا حين يمجها القلم ، ثم يتضاعف أثرها فتصير وابلا . وهكذا يقدم الشاعر هذه الفكرة فى صورة فنية تستمد عناصرها من الطبيعة . أما ابن عبد ربه فيقف بالفكرة

عند تقديمها تقديمًا إخباريًا مباشراً ساذجًا . وهذا مما قصر فيه الشاعر الأندلسى عن اللحاق بأبى تمام .

ومن النماذج المتصلة بجانب المعانى والصور كذلك ، وتأثرها بالأسلوب الجدلى القائم على الاحتجاج والاستدلال ؛ قول الشاعر الأندلسى ابن أبى عبدة [١] فى الورد :

خضعتْ نواوير الرياض لحسنه ... فتذللت تنقاد وهى شـوارد

وإذا تبـدى الورد فى أغصانه ... يزهو فذا ميْت وهذا حاسد

وإذا أتى وفد الربيع مبشراً ... بطلوع صفحتـه فنعم الوافـد

ليس المبشِّر كالمبشَّـر باسمه ... خـبر عليـه من النبوة شاهد

وإذا تعرَّى الورد من أوراقه ... بقيت عـوارفه فهن خوالد [٢]

فليس يخفى أن الشاعر الأندلسى يرد على ابن الرومى [٣] ، الذى كان يفضل النرجس على الورد فى قوله :

خجلتْ خدود الورد من تفضيله ... خجلا تورُّدهـا عليـه شاهـد

لم يخجـل الورد المـورد لونه ... إلا وناحله الفضيـلة عانـد

فَصْلُ القضيـة أن هذا رائد ... زهرَ الرياض ، وأن هذا طارد

شتان بين اثنين ، هذا مُوعد ... بتسلُّب الدنيا ، وهذا واعد [٤]

للنرجس الفضـل المبين بأنه ... زهر ونَوْر ، وهو نبت واحـد

---

(١) هو أبو الحزم جهور بن عبد الله بن أبى عبدة . ذكره ابن الآبار فى : الحلة السيراء وأشار إلى أنه كان من وزراء عبد الرحمن الناصر ، كما نبه إلى أنه غير ابن جهور رئيس قرطبة المتأخر الذى يبدأ بحكمه عصر الطوائف فى العاصمة الأندلسية . انظر : الحلة السيراء ص ١٣٢ — ١٣٧ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق .

(٣) نبه ابن الأبار إلى ذلك فى المصدر السابق .

(٤) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن الرومى ص ٩٧٢ .

فابن أبى عبدة الأندلسى ينقض أبيات ابن الرومى بأبيات على وزنها وقافيتها ، ويرد حججه فى تفضيل النرجس على الورد ، ويلجأ إلى التدليل والتعليل والجدل كما يفعل المتناظرون . فإذا قال ابن الرومى :

إن النرجس أفضل من الورد ، لأن النرجس زهر ونور ، والورد زهر فقط ، رد ابن أبى عبدة بأن الورد برغم ذلك قد خضعت لحسنه نواوير الرياض ، فبدت أمامه ذليلة ، وولت من طريقه شاردة ؛ ودليل ذلك أن الورد إذا أقبلت أيامه وبدا ، بدأت النواوير تصفر وتذبل ، بل إن كثيراً منها يموت .

وإذا قال ابن الرومى : إن النرجس يقود أزهار الرياض حين يسبقها إلى الظهور مبشراً بها ، وأن الورد على عكس ذلك ، إذ هو يطرد الزهور الأخرى ويأتى على أنقاضها وفرق بين المنذر بانتهاء الحياة وهو الورد ، والمبشر بقدومها وهو النرجس ؛ إذا قال ابن الرومى ذلك ، رد ابن أبى عبدة بأن النرجس حين يجىء قبل الورد ليس إلا مبشراً بقدومه ، والمبشَّر به خير من المبشر ، وفى النبوة دليل ذلك ؛ فالمسيح مبشِّر بقدوم محمد ، ومحمد أفضل من المسيح .

ومن النماذج المتصلة بجانب الأسلوب ، قول الشاعر الأندلسى أبى على السناط[1] فى حسناء :

غزاليَّـــة العينين وردية الخدِّ ... كثيبيَّة الـــردفين غصنيـــة القد
ثنت بثنيهـــا التُّقى عن التُّقى ... وصدَّ تصديها الرشيد عن الرشد
لها ناظر يعدو على القلب لحظة ... وخد على لحظ النواظر يستعدى
تُزَانى عيـــون الناظرين إذا رنت ... بعين لها تزنى وتُعفى من الحد[2]

---

(١) هو أبو الحسن بن حسان ، المعروف بالسناط . ذكره الحميدى فى الجذوة ، وقال إنه كان فى أيام الناصر ، وأنه متقدم مكثر . انظر : جذوة المقتبس ترجمة ٣٦٥ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق .

فليس يخفى هنا أسلوب أصحاب هذا الاتجاه المحافظ الجديد من حيث تشابه المقاطع ، وتوازى الكلمات ، وتساوى الجمل ، كما فى البيت الأول ؛ ومن حيث الاهتمام بالجناس ، حتى يأتى بعض الأبيات وبين كل كلمتين فيه جناس كما فى البيت الثانى ؛ ومن حيث التكرار الذى يجعل عجزُ بعض الأبيات مؤلفاً من كلمات صدره مع تعديل بسيط كما فى البيت الثالث . وهذا يذكرنا بالبحترى فى قوله :

وقدّ يكاد القلب ينقد دونه إذا اهتز فى قرب من العين أو بعدِ[1]

وقوله :

فنُعمٌ ولم تنعم بنيل تعده وجُمْلٌ ولم تجمل بعارفة جمل[2]

وقوله :

وحسناءَ لم تحسن صنيعاً وربما صبوت إلى حسناء سيء صنيعها[3]

بل إن قطعة الشاعر الأندلسى تذكرنا أكثر بأبى تمام فى قوله عن ديار الأحباب :

تُطلّ الطلولُ[4] الدمع فى كل موقف وتمثلُ[5] بالصبر الديار المواثلُ

دوارس لم يجف الربيع ربوعها ولا مر فى أغفالها[6] وهو غافل

فقد سحبت فيها السحائب ذيلها وقد أخملت[7] بالنور فيها الخمائل

---

(١) ورد هذا البيت فى قصيدة البحترى التى مطلعها :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصد أظن نسيما قارف الهجر من بعدى

(٢) ورد هذا البيت فى قصيدة البحترى التى مطلعها :

ضمان على عينيك أنى لا أسلو وأن فؤادى من هوى بك لا يخلو

(٣) ورد هذا البيت فى قصيدة البحترى التى مطلعها :

منى النفس فى أسماء لو يستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها

(٤) تطل الدمع : تذهبه هدراً

(٥) تمثل بالصبر : تنكل به كتمثل (بالتشديد) .

(٦) الأغفال : جمع غفل ، وهو ما لا علامة فيه من الطرق ، وما لا بناء فيه من الأرض .

(٧) أخمل القطيفة : جعل لها خملا ، وهو الهدب .

ومن النماذج المتصلة بمنهج القصيدة ، ميمية ابن هانئ الأندلسى فى مدح المعز لدين الله الفاطمى ، حيث يبدأ بالغزل التمهيدى فيقول :

أصاخت فقالت وقعُ أجردَ شيظَمٍ ... وشامت فقالت لمعُ أبيض مِخْذَمِ (١)
وما ذُعرتْ إلا بجرس حليها ... ولا لمحت إلا بُرَّى فى مُخَدَّمِ (٢)
ولا طعمت إلا غِراراً من الكرى ... حذار كَلُوء العين غير مهوَّمِ (٣)
حِذارَ فتى يلقى الغيور بحتفه ... ويمرق تحت الليل من جلد أرقم

إلى أن ينتقل إلى المدح فيقول :

ألا ليت شعرى هل يروع خيامَها ... عِثارُ المَذاكى (٤) بالقنا المتحطم
فلو أننى أستطيع أثقلت خدرها ... بما فوق رايات المعز من الدم
من اللاء لا يصدرن إلا روية ... كأن عليها صبغ خمر وعَنْدم (٥)
كأن قناها المُلد وهى خوافق ... قدود المها فى كل رَيْط مسهَّمِ (٦)

ثم يبالغ فى وصف الممدوح فيقول :

وروح هُدى فى جسم نور يمده ... شعاع من الأعلى الذى لم يجسم

---

(١) أصاخت : أنصتت . والأجرد : الفرس القصير الشعر . والشيظم : الطويل الجسم الفتى . وشامت : تطلعت . ومخدم كنبر : من صفات السيف القاطع ، ويطلق عادة على سيف الحارث بن أبى شمر .

(٢) البرى : جمع برة ، والبرة : الخلخال . والمخدم : موضع الخلخال من الرجل .

(٣) الغرار : القليل من النوم وغيره . وكلوء العين : يقظها الذى لا يغلبه النوم ، والمهوم : من يهز رأسه من النعاس .

(٤) المذاكى من الخيل : المكتملة ، وأصله التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

(٥) العندم : دم الأخوين أو البقم .

(٦) المها : جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية . والريط : جمع ريطة ، وهى الملاءة . والمسهم : المخطط .

ومتصـــل بين الإله وبينـــه مُـمِرٌّ[١] من الأسباب لم يتصرم
إذا أنت لم تعلم حقيقة فضـــله فسائل به الوحى المنزل تعـــلم
على كل خد من أسارير[٢] وجهه دليـــل لعين النـــاظر المتوسم
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه عن الله لم يُعقـــل ولم يتوهم

وأخيراً يختم القصيدة بقوله :

وعندى على دانى اللقاء وبُعده قصائد تسرى كالجمان المنظم
إذا أشأمتْ كانت لُبانة معـــرق وإن أعرقت كانت لبانة مشئم[٣]
تَطاوَلُ عن أقدار قوم جلالة وتصغر عن قدر الإمام المعظم
وأى قوافى الشعر فيك أحوكها وما ترك التنزيل مـــن متقدم
ولو أن عمرى بالغ فيك همتى لبقّيتُ حيًّا ألف عام محرّم
أسيء ظنـــونى بالثناء وأنتحى لذم ثنـــائى وهو غـــير مذمّم
كمن لام نفسًا وهى غير ملومة وأقحم ظنًّا وهو ليس بمقحم
ولمـــا تلقتك المواسم آنفـــا تربصتُ حتى جئت فرداً بموسم
ليعلم أهل الشرق والغـــرب أننى بنفسىَ لا بالوفد كان تقـــدمى

ومن النماذج المتصلة بلغة القصيدة وموسيقاها ، هذه القصيدة التى سبقت بعض أجزاء منها ، ثم كثير غيرها مما قاله ابن هانئ بخاصة ، حيث يتضح جليًّا إيثار اللفظة الجزلة والعبارة الفخمة والموسيقى الجليلة ، مما يذكرنا بأبى تمام والمتنبى .

ومن الظواهر التى تتصل بالاتجاهات الشعرية كذلك فى فترة الخلافة :

---

(١) ممر : شديد الفتل .
(٢) الأسارير : محاسن الوجه .
(٣) أشأمت : توجهت إلى الشام ، وأعرقت : توجهت إلى العراق . واللبانة : الحاجة .

(ب) تطور الاتجاهات السابقة :

ونعنى بها تلك الاتجاهات التى عُرفت فى الأندلس قبل الاتجاه المحافظ الجديد، وهى : الاتجاه المحافظ ، والاتجاه المحدث ، والاتجاه الشعبى . أما الاتجاه المحافظ فقد كان تطوره يتمثل فى الذوبان تدريجاً فى الاتجاه المحافظ الجديد ، الذى أخذ يحل محله ويؤدى وظيفته فى التعبير عن تلك الأغراض التقليدية من مدح وفخر ورثاء وحماسة ، وما إلى ذلك . ولم يعد لهذا الاتجاه المحافظ بصورته القديمة مجال كبير بعد أن تعلق الأندلسيون بالاتجاه المحافظ الجديد ، واعتبروه الصورة المثلى للشعر التقليدى . وأغلب الظن أن هذا المجال الضيق الذى انحصر فيه الاتجاه المحافظ أصبح يتمثل فى أوساط الرواة واللغويين وأمثالهم من المتشبثين بطرائق العرب القدماء فى التعبير . أما الشعراء والجمهور المثقف فقد كان الاتجاه المحافظ الجديد هو أمثل الاتجاهات الشعرية التقليدية عندهم وآثرها لديهم . ولعل مما يؤيد هذا ماسبقت الإشارة إليه من قول الزبيدىّ :إن الرياحى نظم قصيدة رثاء بناها على مذاهب العرب وخرج فيها عن مذاهب المحدثين فلم يرضها العامة [١] .

وأما الاتجاه المحدث فقد بقى نامياً مزدهراً لبقاء دواعى نموه وازدهاره ؛ فلا تزال الحياة الأندلسية برغم تعقلها واستقرارها من جانب ، تعج بكثير من التحرر وعدم المحافظة من جانب آخر ؛ فالخمر شائعة بين الأندلسيين شيوعاً يجزع معه الخليفة المستنصر ، ويدعوه إلى الأمر بإراقتها والحم باجتثاث كرومها ، لولا أن يُنصح بالعدول عن ذلك لعدم جدواه ؛ فإن الأندلسيين — كما قيل للمستنصر — سوف يستخرجون خمرتهم من أى شىء آخر إذا اجتثت الكروم [٢] .

---

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدى ص ٢٩٩ . والمراد بالمحدثين ما يشمل الاتجاه المحافظ الجديد .

(٢) انظر : جذوة المقتبس ص ١٢ ، ١٤ .

ويعبر عن مشاعر كثير من الأندلسيين فى تلك الفترة الشاعر الرمادى [١] ، بقصيدته التى تمثل الاتجاه المحدث ، فى موضوعها الخمرى ، وأسلوبها القصصى ، وروحها التحررى ، وذلك حيث يقول فى موقف المستنصر من الخمر :

بِخَطْب الشاربين يضيق صدرى ... وتُرْمضنى [٢] بليَّتُهم لعمرى

وهل هُمْ غير عشاق أصيبوا ... بفقد حبائب ومنوا بهجر

أعشاق المدامة إن جزعتم ... لفرقتها فليس مكان صبر

سعى طُلاّبُكم حتى أريقت ... دماء فوق وجه الأرض تجرى

تضوّع عرفها شرقًا وغربًا ... وطبَّق أفق قرطبة بعطر

فقل للمسفحين لها بسفح ... وما سكنته من ظرف بكسر [٣]

وللأبواب إحراقًا إلى أن ... تركتم أهلَها سكان قفر

تحريتم بذاك العدل فيها ... بزعمكم ، فإن يك عن تحرى

فإن أبا حنيفة وهو عدل ... وفرّ عن القضاء مسير شهر

فقيه لا يدانيه فقيه ... إذا جاء القياس أتى بدر

وكان من الصلاة طويل ليل ... يُقطّعه بلا تغميض شفر

وكان له من الشُّرّاب جار ... يواصل مغربًا فيها بفجر

وكان إذا انتشى غنى بصوت المضاع بسجنه من آل عمرو [٤]

---

(١) من الشعراء الذين عاشوا صدر حياتهم فى فترة الخلافة ، وسوف نترجم له فى الفترة التالية التى عاش فيها أكثر حياته .

(٢) أرمضه : أوجعه وأحرقه .

(٣) المسفح : من عمل عملا لا يجدى عليه . والسفح : الإراقة . وظرف الخمر : وعاؤها .

(٤) يشير إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان الأموى العرجى الشاعر . وكان قد شبب بجيداء أم محمد ابن هشام بن إسماعيل خال هشام بن عبد الملك ، ليفضح ولدها الذى كان والى مكة ، فسجنه تسع سنين إلى أن مات .

« أضاعونى وأى فتًى أضـــاعوا ليوم كريهـــة وسداد ثغر »[١]

فغيَّب صوتَ ذاك الجار سجن ولم يكن الفقيه بذاك يدرى

فقال وقد مضى ليـــل وثان ولم يسمعه غنًّى : ليت شعرى

أجارى المؤنسى ليـــلا غناءً لخيرٍ قطعُ ذلك أم لشر

فقالوا : إنه فى سجن عيسى أتاه به المحارس وهو يسرى

فنـــادى بالطويلة وهى ممـــا يكون برأســـه لجليـــل أمـــر

ويمم جـــاره عيسى بن موسى فـــلاقاه بإكرام وبـــر

وقال : أحاجة عرضت فإنى لقـــاضيهـــا ومتبعهـــا بشكر

فقال : سجنت لى جاراً يسمى بعمرو ، قال : يطلق كل عمرو

بسجنى حين وافقـــه اسم جار الـ فقيه ، ولو ســـجنتهمُ بوِتر[٢]

فأطلقهم له عيسى جميعًـــا لجـــار لا يبيت بغـــير سكر

فإن أحببتَ قل لجـــوار جار وإن أحببت قل لِطلاب أجر

فإن أبا حنيفـــة لم يؤب من تطلُّبـــه تخلُّصَـــه بوزر

نواقعهـــا من اجل النهى سرًّا وكم نهىٍ نواقعـــه بجهر[٣]

والحب الشاذ كان مألوفًا كذلك بين كثير من الأندلسيين ، حتى لنرى الغزل بالمذكر لايقتصر على مجالات اللهو والمجون فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى أكثر المجالات وقاراً واصطناعًا للجد ، وهو مجال مدح الخليفة . فقد أثرت بعض مدائح عن شعراء من تلك الفترة ، مقدمة بغزل شاذ ، مما يدل على أن هذا النوع من الغزل قد بلغ من الشيوع والإلف درجة لم يعد معها مستنكراً حتى فى مقام مدح الخليفة نفسه . ومن أمثلة

---

(١) هذا البيت للعرجى .

(٢) الوتر : الثأر .

(٣) اقرأ هذه الأبيات فى جذوة المقتبس للحميدى ص ١٤ ، ١٥ .

ذلك قول إسماعيل الكاتب فى مقدمة قصيدة له يمدح بها الناصر :

لطُفتْ أناملُه بعقرب صـــدغه ... عمداً ليلدغ فى فؤاد العاشقِ
وكأن شـــاربه هـــلال طالع ... قد خطه بالمسك أحذق حاذق
وكأنما بجبينه شمس الضحى ... قد قُنِّعت بظلام ليل غاسق
وكأن وجنتـــه أزاهر روضة ... يندى بها السوسان فوق شقـــائق
فإذا تلفّتَ قلت صورة دميـــةٍ ... وإذا تبسم قلت خطفـــة بارق
يا غاية الحسن الذى هو غايتى ... كيف احتمالى فى فؤاد خافق
حكمَ الإله بما تراه فما أرى ... من حيلة فى دفع حكم الخالق
قل للخليفة من أمية والذى ... ما دون فيض نواله من عائق
أنْسَيْتَ من منصورها ورشيدها ... وفضحت من مهديّها والواثق[1]

والطبيعة الأندلسية كانت كما هى دائمًا ، فاتنة تتصدى لعيون الشعراء ، فتشحذ قرائحهم وتغرى شاعريتهم ، وتلهمهم لوحات شعرية هى من خير ماخطت أقلام الأندلسيين . وقد بلغ من افتتان الأندلسيين منذ فترة الخلافة بالطبيعة ، أن بدأوا يخلّصون بعض أشعارهم فيها مما كان يخالطها من حديث عن الخمر أو اللهو ، وصاروا يجعلون موضوع الطبيعة فى كثير من الأحيان موضوعًا مستقلاً ، يقصد لذاته ويتحدث عن الطبيعة فيه حديثًا خالصًا . ومن ذلك قول عبيدالله بن يحيى[2] فى الورد وقِصَر مدته :

تخلت من الورد الأنيق حدائقهْ ... وبان حميدَ الأنس والعهد رائقهْ
أقام كرجع الطرف لم يشف غلة ... ولم يرو مشتاق الجوانح شائقه
فما كان إلا الطيف زار مسلمًا ... فسُرَّ ملاقيـــه وسيء مفـــارقه

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجموعة ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) ذكره الحميدى فى الجذوة وأشار إلى أنه كان وافر الأدب كثير الشعر جليلا ، وأنه كان فى أيام الناصر . انظر : الجذوة ترجمة ٥٢٢ .

على الورد من إلف التصابى تحية وإن حرمت إلف التصابى علائقه[١]

والتطور الملحوظ الذى طرأ على الاتجاه المحدث فى فترة الخلافة ، هو أن حدة المجون فيه قد خفت ، فأصبحت المجاهرة بالمعاصى شيئًا لاأثر له تقريبًا ، كما صار الاستخفاف بالمواضعات الاجتماعية والأخلاقية المرعية مما لايكاد يحس فى شعر السائرين فى هذا الاتجاه المحدث ؛ فقد حل محل المجاهرة بالمعاصى والاستخفاف بالمواضعات والأخلاق ، تجويد الشعر وصقله ، والتفنن فى معانيه وصوره ، والاحتجاج لما تضمنه من أفكار وآراء . وهكذا سترت الجوانب الفنية غالبًا ماقد حواه الشعر من مجون وماصوره من لهو .

وأما الاتجاه الشعبى ، فقد اشتد عوده ، حيث اتجه إليه كبار الشعراء فى تلك الفترة ، واتخذوه فى بعض الأحيان إطاراً لتجاربهم .

فقد أخبرنا مؤرخو الموشحات أن ابن عبد ربه والرمادى كانا من الوشاحين ، وابن عبد ربه من أكبر شعراء فترة الخلافة ، والرمادى كذلك من أكبر الشعراء الذين عاشوا الجزء الأول من حياتهم فى نفس الفترة . وليس من شك فى أن اتجاه شاعرين كبيرين كهذين إلى الموشحات . مما يقوى عودها ويدفعها فى سبيل تطورها ونموها ، وهذا ماحدث ؛ فقد حدثنا الرواة كذلك عن تطور أحرزته الموشحات على يد الرمادى ، فذكروا : أنه أول من صنع التضمين فى المراكيز [٢] . ولعل المراد بهذا أن الرمادى أول من ضمن الخرجات أجزاء من الأغنيات الشعبية الأندلسية ؛ أو من الأمثال والحكم الشائعة ، أو نحو ذلك مما يصدق عليه التضمين .

وبرغم أن الرمادى قد عاش أكثر حياته فى الفترة التالية ، فالمرجح أن يكون هذا التطوير الذى أدخله على الموشحات قد حدث فى فترة الخلافة التى نسوق عنها الحديث ،

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الجذوة ص ٢٥١ .

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ والذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١ ، ٢ .

وذلك لأن هذه الفترة كانت أكثر حرية من الفترة التالية ، والحرية بجوها الرحب هى التى تتيح لشاعر كالرمادى أن يتجه إلى هذا الاتجاه الشعبى أولا ، وأن يطور فيه ثانيًا.

ومع الأسف لم يُعثر إلى الآن على موشحات من تراث تلك الفترة ؛ ولعل السبب اعتبار الرواة ومؤرخى الأدب الأقدمين هذا الفن الشعرى فنًّا سوقيًّا لايستحق التسجيل ، وقد صرح بذلك ابن بسام أول من كتب عن الموشحات من الأقدمين [١] .

هذا مايتعلق بالاتجاهات الشعرية وما أضيف إليها من زيادات ، وماطرأ عليها من تطورات . وأما من حيث الأفكار الشعرية وصلتها بالنهضة العلمية التى أظلت الأندلس فى فترة الخلافة ، فيلاحظ على بعض النماذج الشعرية :

(ح) تسرب بعض الأفكار العلمية :

ولسنا نعنى بذلك نظم الحقائق العلمية فى منظومات يسهل حفظها ، وإنما نعنى معالجة بعض القضايا معالجة شعرية تشتمل على أفكار واصطلاحات من ميدان العلم لامن ميدان الفن . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ، تلك الأبيات التى يوجهها ابن عبد ربه إلى الفلكى أبى عبيدة[٢] ، مناقشًا إياه فى بعض القضايا الجغرافية الفلكية . ورافضًا آراءه فى كل ذلك :

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٢ .

(٢) هو مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة لكونه كان مولعاً بالتشريق فى قبلته . وكان عالماً بالحساب والنجوم . ترجم له ابن الفرضى فى تاريخ العلماء وقال إنه توفى سنة ٢٩٥ هجرية . وترجم له الحميدى فى الجذوة والضبى فى البغية ، وذكرا أن وفاته كانت سنة ٣٠٤ هجرية . وهذا التاريخ الأخير هو الراجح ، فإن الأفكار التى يعتنقها أبو عبيدة ويجاهر بها تتناسب مع فترة الخلافة وما فيها من حرية فكرية ، ولهذا يرجح أنه عاش طرفاً من تلك الفترة وجاهر بآرائه وتحمل مثل هذا النقد الذى يوجهه إليه ابن عبد ربه . انظر تاريخ العلماء ترجمة ١٤٢٠ ، وجذوة المقتبس ترجمة ٨٢٢ ، وبغية الملتمس ترجمة ١٣٧١ .

أبا عبيدة ما المسئول عن خبر ... تحكيه إلا سواء والذى سألا
أبيتَ إلا شذوذاً عن جماعتنا ... ولم تُصب رأى من أرجَى ولا اعتزلا
كذلك القِبلة الأولى مبدلة ... وقد أبيت فما تبغى بها بدلا
زعمتَ بهرم أو بيذخت يرزقنا ... لا بل عطارد أو مرّيخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق فى فلَك ... بهم يحيط وفيهم يَقسم الأجلا
والأرض كوريّة حفّ السماء بها ... فوقًا وتحتًا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما هذا وذا دولا
فما لكانون فى صنعا وقرطبة ... برداً وأيلول يذكى فيهما الشعلا[1]

فهذه قضية يحس معها الشاعر بالنفرة من أراء الفلكيين الذين ينسبون بعض ظواهر الكون لعلاقات بين الكواكب ، وبعدم الاقتناع بما يقول به العلماء من أن الأرض كروية يحيط بها فضاء السماء من كل جهاتها ، وأنها أشبه بنقطة فى وسط دائرة ، وأن الفصول تتعاقب على الأرض وتختلف من مكان لآخر باختلاف موقع هذا المكان شمالا أو جنوبًا ، ومن هنا يكون الصيف فى الجنوب هو وقت الشتاء فى الشمال . ويدلل الشاعر على رفضه لتلك النظريات بأن شهر كانون يكون فى كل من صنعاء وقرطبة برداً برغم أن هذه المدينة فى اليمن وتلك فى الأندلس ؛ وبأن شهر أيلول يكون كذلك فى كل من المدينتين قيظًا برغم هذا الاختلاف فى المكان أيضًا . ولسنا هنا بصدد تفنيد خطأ الشاعر فى رفضه أقوال العلماء ، وإنما الذى نريده فقط هو ملاحظة تسرب تلك الأفكار العلمية الكثيرة إلى هذا النموذج من شعر ابن عبد ربه ، وكيف تعرض إلى فكرة الفلك والكواكب وعلاقتها بالظواهر الطبيعية ، وإلى فكرة كروية الأرض وإحاطة السماء بها من

---

(١) وردت هذه الأبيات فى تاريخ العلماء لابن الفرضى ص ١٢٦ وفى طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٤ ، ٦٥ . وهناك بعض اختلاف بين النص الوارد فى تاريخ العلماء والوارد فى طبقات الأمم . وقد أخذنا من كل ما يتسق أكثر مع السياق .

كل الجهات ، وإلى فكرة الفصول وتعاقبها على أجزاء الأرض ، واختلافها فى كل جزء حسب موقع ذلك الجزء من الشمال أو الجنوب .

ولسنا بعد فى حاجة إلى أن نقول : إن هذه الظاهرة الشعرية كانت أثراً من آثار شيوع الدراسات الجغرافية والفلكية فى فترة الخلافة ، تبعًا لما كان من حرية فكرية ونهضة ثقافية .

ومن الأمثلة التى تصور تسرب الأفكار العلمية إلى بعض النماذج الشعرية ، تلك الأبيات التى يوجهها الزبيدى اللغوى والشاعر الأندلسى ، إلى الوزير المصحفى ، ليؤكد له — من وجهة نظره — خطأ استعمال الفعل « فاض » بالضاد ، ويبين أن صحته « فاظ » بالظاء :

أتانى كتاب من كريم مكرّم ... فنفسىَ عن نفس تكاد تفيظُ
فسرَّ جميعَ الأوليـــاء وروده ... وسىء رجال آخرون وغيظـــوا
لقد حفظ العهد الذى قد أضاعه ... لدىَّ ســـواه والكريم حفيظ
وباحثتَ عن فاظت وقبلىَ قالها ... رجال لديهم فى العلوم حظوظ
روَى ذاك عن كيسان سهل وأنشدوا ... مقال أبى الغَيَّاظ وهو مغيظ
وسُميتَ غيَّاظًا ولستَ بغـــائظ ... عدوا ولكن للصـــديق تغيظ
فلا حفظ الرحمن روحك حيـــة ... ولا هى فى الأرواح حيث تفيظ[1]

---

(١) كان الوزير المصحفى قد بعث بكتاب إلى الزبيدى وردت فيه كلمة فاض بالضاد ، فكتب إليه الزبيدى بأبيات ختمها بقوله :

لا تدعن حاجتى مطرحـــة ... فإن نفسى قد فاظ فائظها

وكأنه أراد بذلك أن يلفت نظره إلى الخطأ ويرشده إلى إصلاحه .

ولكن المصحفى بعث بأبيات إلى الزبيدى يطلب فيها مزيداً من التفسير ويقول : =

فالشاعر هنا يحاول إثبات صحة الفعل « فاظ » بالظاء وتخطئة نطقه بالضاد[1] . وهو يعمد إلى التدليل على صحة قوله بذكر آراء الثقات من اللغويين ، وإيراد الشاهد من كلام العرب ، ويضمن نموذجه الشعرى بعض الأفكار والاصطلاحات الخاصة بالحقل اللغوى لا الحقل الشعرى . وواضح أن مثل ذلك كان أثراً من آثار النهضة العلمية وازدهار الدراسات اللغوية فى فترة الخلافة .

وأما من حيث لغة الشعر وعلاقتها بالحياة اللغوية التى كان يحياها الأندلسيون فى فترة الخلافة ، فيلاحظ على بعض نماذج الشعر الفصيح مايمكن أن يسمى :

(د) الازدواج اللغوى :

ونعنى بذلك تسرب بعض الألفاظ من عامية اللاتينية المسماة « رومانثى » Romance إلى لغة الشعر الفصيح ، بحيث يأتى النظم مزدوجاً من الناحية اللغوية . ومن أمثلة ذلك ، هذا النموذج الذى تتضمنه القصة الآتية :

جلس الخليفة الناصر يوماً مع خاصته . وفيهم الوزير ابن جهور والشاعر أبو القاسم لُبّ . فأراد الخليفة أن يداعب جلساءه ؛ فطلب من الشاعر أن يهجو الوزير ابن جهور ، فامتنع خوفاً على نفسه من سلطة الوزير ، فطلب من الوزير هجاء الشاعر ، فامتنع خوفاً على عرضه من لسان الشاعر . فقال الناصر : فأنا أهجوه ، وأنشد :

لُبٌّ أبو القـاسم ذو لحيـة طـويلة فى طولهـا مِيـلُ

= وقد أتتنى فديت شاغلة للنفس أن قلت فاظ فائظها
فأوضحتها تفـز بنادرة قـد بهظ الأولين باهظها

فرد عليه الزبيدى بالأبيات التى أوردناها. انظر القصة كلها فى جذوة المقتبس ترجمة ٣٤ ص ٤٣-٤٤، ٤٥ .

(١) استعمال الفعل بالضاد لغة بعض العرب . انظر : اللسان مادة « فاظ »

ثم قال لابن جهور : لابد من تذييل هذا البيت ، ودع الاعتذار . فقال :

وعرضهـا ميـلان إن كُسِّرت والعقـل مـأفون ومخبـول
لـو أنه احتـاج إلى غسلهـا لم يكفـه فى غسلها النيـل

فضحك الناصر ، وقال للشاعر المهجو : إنه قد سبب لك القول فقل ، فأنشد :

قال أمـين الله فى خلقـه لى لحيـة أزرّى بهـا الطول
وابن جُهـير قال قول الذى مأكله القَـرْضيـل والفـول
لولا حيـائى من أمير الهدى نخست بالمنخس « شُو » . . .

ثم أمسك عن الحديث ولم يتم البيت بعد كلمة « شو » فقال له الناصر : « قولو » فقال الشاعر : أنت هجوته يامولاى . فضحك الناصر ، وأمر له بصلة[1] .

فكأن الشاعر قال فى ابن جهور :

لولا حيـائى من أمير الهدى نخست بالمنخس « شو قولو »

والإضحاك والحساسية فى هذا الهجاء ، يأتيان من استخدام لفظتين « رومانثيتين » وهما : « شو » و « قولو » : والأولى تدل على ضمير الملك للمفرد الغائب ، مثل الهاء فى التعبير العربى : « كتابه » ، وقد صارت فى الإسبانية « سو » Su . والثانية معناها الردف . وقد صارت فى الإسبانية « كوُل » Culo فالمعنى على هذا :

لولا حيـائى من أمير الهدى نخسـت بالمنخس ردفه

وهكذا استُخدمتْ بعض الألفاظ « الرومانثى » فى بعض النماذج الشعرية الفصحى فكان منهما ماسميناه بالازدواج اللغوى .

وليس من شك فى أن قوة الصلة بين العنصرين العربى والإسبانى فى فترة الخلافة ،

---

(١) وردت هذه القصة والأبيات التى جاءت ضمنها فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ وفى : البيان المغلوب ج ٢ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

كانت من أسباب تسرب مثل هذه الألفاظ الأجنبية إلى لغة الشعر . هذا بالإضافة إلى روح الحرية وطابع التحرر اللذين كانا من أهم سمات تلك الفترة من تاريخ الأندلس.

أما من حيث دور الشعر فى تلك الفترة وصلته بالحياة التى كان يحياها الأندلسيون فأهم مظاهره :

(هـ) تصوير العهد الذهبى :

ونعنى بذلك أن الشعر فى فترة الخلافة قد صور الحياة الأندلسية فى عهدها الذهبى ، الذى نعمت فى ظلاله سياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا . فقد صور الشعر عظمة الدولة وقوة الخلافة ، وتفوقها تفوقًا جعل إمبراطور الروم يرسل سفراء إلى قرطبة موالين ، وجعل بعض أمراء الإسبان الشماليين المسيحيين يَقْدَمون إلى العاصمة الأندلسية خاضعين . وفى بعض ذلك يقول منذر بن سعيد ، مشيراً إلى وفود سفارة إمبراطور الروم على الناصر :

ترَى الناس أفواجًا يؤمون بابه ... وكلهمُ ما بين راج وآملِ
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجـاء لنـائل
فعش سالمًا أقصى حياة مؤمَّلاً ... فأنت رجاء الكل حافٍ وناعل[1]
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

ويقول عبد الملك بن سعيد . مشيراً إلى قدوم الأمير الأسبانى « أردون » إلى المستنصر طالبًا العون :

هـذا أميرهمُ أتاه آخـذاً ... منـه أواصر ذمة وحبالِ
متواضعًـا لجـلاله متخشعًا ... فى مأمن لمَّا يُرَعْ بقتـال
سـينال بالتأميل للملك الرضا ... عزًّا يعم عـداه بالإذلال

(١) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٤ .

لا يوم أعظم للولاة مسرة وأشده غيظًا على الأقيال[١]
من يوم « أردون » الذى إقباله أمل المدى ونهاية الإقبال[٢]

وصور الشعر كذلك قوة جيش الأندلس وضخامته وسرعة حركته وبعد مسيرته وشدة تنكيله بالأعداء . ومن ذلك قول إسماعيل بن بدر :

وذى لجب كالبحر عب عبابه فضاق به رحب الفلا والتنائف
قريب الخطا نائى المدى مالىء الملا بجمع تراه واقفًا غير واقف
تركنا به أرض العدو كأنها مجاهل للمرتاد غير معارف[٣]

كما صور الشعر أيضًا كثيراً من مظاهر الحياة الاجتماعية ، فى جانبيها اللاهى والجاد . وقد مضت عدة نماذج تتصل بالجانب اللاهى . أما الجانب الجاد فتمثله نماذج كثيرة ضمتها كتب الأدب والتراجم التى حوت أشعاراً من تراث تلك الفترة . ومن أبرز تلك النماذج مايعبر عن تجارب ذهنية مصورة فى شعر حكمى مبنى على البصر بالحياة ، وسعة الإدراك للحقائق . ومن ذلك قول الناصر :

ما كلُّ شىء فقدتُ إلا عوضنى الله عنه شيّا
إنى إذا ما منعت خيرى تباعد الخير من يديا
مَن كان لى نعمة عليه فإنها نعمة عليا[٤]

ومن أبرز النماذج الشعرية التى تمثل الجانب الجاد من حياة الأندلسيين فى تلك الفترة كذلك ، تلك التى تعبر عن تجارب عاطفية مصورة فى غزل عذرى ، معتمد على صدق

---

(١) الأقيال : جمع قيل ، وهو الملك .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : الحلة السيراء لابن الأبار ص ١٣٨ .
(٣) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .
(٤) وردت هذه الأبيات فى : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١٧٦ .

العاطفة وعمق الشعور ونبل الإحساس وسمو الروح ، ومن أمثلة ذلك كثير مما يتضمنه كتاب الحدائق ، من مثل قول ابن فرج [١] :

وطائعة الوصال عدوتُ عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاعِ
بدت فى الليل سافرة فباتت ... دياجى الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها ... إلى فتن القلوب لها دواع
فلمّكتُ النهى جمحات شوق ... لأجرى فى العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السَّقْب يظما ... فيمنعه الكعام من الرضاع [٢]
كذاك الروض ما فيه لمثلى ... سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات ... فأتخذ الرياض من المراعى [٣]

وهكذا صور الشعر الأندلسى الحياة الأندلسية بأطرافها الرسمية وغير الرسمية ، وجوانبها اللاهية والجادة ، وشاع بين الأندلسيين شيوعًا جعله يتغلغل فى الحياة العامة ويُستخدم فى كثير من الأمور اليومية . فكان فى بعض الأحيان يؤدى وظيفة الرسائل والبطاقات [٤] ، وأحيانًا يحل محل لغة الجدل والمناظرات [٥] . بل ، لقد بلغ من شيوع الشعر وقوة اتصاله بحياة الأندلسيين ، فى تلك الفترة ، أن أنطقوا به غير الإنسان فى بعض المواقف . وقد حُكى أن الناصر أحضر طبيبًا لفصده ، وقعد لذلك بالبهو المشرف بأعلى

---

(١) هو أحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق ، ترجم له الحميدى فى الجذوة وذكر أنه كان وافر الأدب كثير الشعر . وكتابه الحدائق قد ألفه للحكم المستنصر وضمنه كثيراً من نماذج الشعر العذرى للأندلسيين . انظر الجذوة ترجمة ١٧٦ .

(٢) السقب : ولد الناقة . الكعام : الكمامة .

(٣) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المقتبس ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) اقرأ نماذج من ذلك فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٨ وفى طبقات الأمم لصاعد ص ٧٩ .

(٥) اقرأ بعض شواهد ذلك فى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٩ .

الزهراء ، ولما أخذ الطبيب الآلة ليقوم بالجراحة ، أطل زُرزور وصعد على إناء من الذهب كان بالمجلس ، وراح يقول :

أيهـا الفـاصد رفقًـا بأمـير المؤمنينـا
إنمـا تفصـد عـرقًا فيـه محيـا العالمينـا[1]

وقد قالوا : إن بعض نساء الخليفة ربت هذا الزرزور على حفظ هذا الشعر ، وفاجأت به الخليفة لتسعده بهذه المفاجأة . ويمكن أن تكون فى هذه الحكاية مبالغة أو اختراع ، ولكنها مع ذلك دالة على أن الشعر فى هذه الفترة كان من الشيوع فى حياة الأندلسيين بحيث يسمح بمثل هذا الذى يروون عن نطق الزرزور بالشعر .

(و) الشعراء :

شعراء هذه الفترة كثيرون ، وهم من الوفرة بحيث يصعب إحصاؤهم والحديث عن كل واحد منهم . فهم بين خليفة كالناصر والمستنصر ، ووزير كابن جهور وابن شهيد ، وعالم كالزبيدى ومنذر بن سعيد ، هذا بالإضافة إلى الأدباء الذين كانو يصرفون أكثر نشاطهم إلى الأدب ؛ كابن عبد ربه وابن هانىء وغيرهم من الشعراء العديدين الذين عرفتهم تلك الفترة من تاريخ الأندلس ، والذين حفظت المصادر [2] أسماء بعضهم وطرفًا من أشعارهم ، مثل إسماعيل بن بدر ، وهانىء بن محمد ، وعبيد الله بن يعلى ، وعبد الرحمن بن الأصم وأغلب بن شعيب الجيانى ، وعبيد الله بن يحيى بن إدريس . وهؤلاء ممن اشتهروا فى أيام الناصر . ومثل : أحمد بن فرج ، وابن الصفار ، وعبيد الله بن الناصر ، وابن يعقوب الأعمى ، وأبى بكر المغيرى ، ومحمد بن الحسين الطبنى . وهؤلاء ممن اشتهروا فى أيام المستنصر .

---

(١) ورد هذان البيتان وقصتهما فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

(٢) من أهم تلك المصادر : جذوة المقتبس ، وبغية الملتمس ، والحلة السيراء ، والمغرب .

وقد كان بعض شعراء فترة الخلافة ممن عاشوا بعض حياتهم فى الفترة السابقة وكان لهم فيها نتاج شعرى ؛ كابن عبد ربه ، ولكنا سنعتبره من شعراء فترة الخلافة ؛ لأنها الفترة التى تم فيها نضجه الفنى . كذلك كان ممن أسهموا بنشاط شعرى فى تلك الفترة ، بعض الشعراء الذين سيلمعون فى الفترة التالية مثل الرمادى ، ولكنا سوف نعتبر أمثال هذا الشاعر من شعراء الفترة التى فيها سيلمعون .

ولكثرة الشعراء فى فترة الخلافة وصعوبة الحديث عنهم جميعًا فى هذا الدرس العام ، سنكتفى بالحديث عن شاعرين فقط ، لأنهما أولا أبرز شعراء فترة الخلافة ، ولأن شعرهما ثانيًا يمثل كل الاتجاهات الشعرية فى تلك الفترة . وهذان الشاعران هما : ابن عبد ربه ، وابن هانئ .

ابن عبد ربه :

هو أبو عمر ، أحمد بن محمد عبد ربه[١] ؛ كان جده الرابع مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل . وقد ولد ابن عبد ربه فى قرطبة على الأرجح ، وكان مولده سنة ٢٤٦هـ. ونشأ بالعاصمة الأندلسية ، متلقيًا علوم الإسلام والعربية على كبار العلماء الأندلسيين فى ذلك الحين [٢] ، ثم أكب بنوع خاص على كتب التاريخ والأدب ودواوين الشعر التى جادت بها قرائح المشارقة قبل عهد ابن عبد ربه وفى أيامه [٣] . وقد زار المشرق كما

---

(١) اقرأ ترجمته وأخباره فى: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١١٨ ، وفى : جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٧٢ وفى : بغية الملتمس للضبى رقم ٣٢٨ ، وفى مطمح الأنفس لابن خاقان ص ٥٨ ، وفى معجم الأدباء لياقوت جـ ٤ ص ٢١١ — ٢٢٤ وفى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٣٢ — ٣٣ وفى المطرب لابن دحية ص ١٥١ وما بعدها.

واقرأ حياته مفصلة فى كتاب : ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور (بيروت سنة ١٩٣٣) .

(٢) مثل الخشنى ووضاح وبقى بن مخلد (ابن الفرضى) .

(٣) القارئ لكتابه العقد والمتأمل فى أشعاره ، يدرك اطلاعه عل بعض كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وسيرة ابن هشام وأشعار الجاهليين والإسلاميين .

يؤكد ذلك حديثه فى كتابه « العقد » حين عرض لموضوع وصف بعض البلدان والأماكن المقدسة ، كالمسجد الحرام والكعبة والحجر الأسود والمسجد النبوى [١] وما إلى ذلك ، وإن كنا لانجد ذكراً لهذه الزيارة عند أحد ممن ترجموا له من القدماء[٢] . وبرغم مايبدو من أن تلك الرحلة كانت أساسًا للحج ؛ قد كانت إلى جانب ذلك رحلة لتوسيع الدراسة وتعميق العلم وتقوية الاتصال بثقافة المشرق ، التى كانت دائمًا المصدر الأول لثقافة الأندلسيين .

وقد كان أول ظهور شاعرنا كأديب فى الفترة السابقة أيام الأمير محمد ، وقد عاصر ابنيه المنذر وعبد الله ، الذى كانت لشاعرنا فيه قصائد مدح حفظت المصادر طرفاً منها[٣] . ثم امتد الأجل بابن عبد ربه حتى كان من ألمع شعراء فترة الخلافة أيام عبد الرحمن الناصر وبعد حياة حافلة بالأدب شعراً ونثرا وافته منيته سنة ٣٢٨ ، فدفن بقرطبة بعد أن عاش نحو اثنين وثمانين عاماً .

ويبدو أن ابن عبد ربه كان فى شبابه محبًّا للمتعة فى شىء من التحرر ؛ فكان يشرب ويطرب ويلهو . ومما يدل على ذلك قوله :

وقضيبٍ يميس فوق كثيب طيِّبِ المجتنى لذيذِ العناقِ
قد تغنى كما استهل يُغنى ساقُ حرّ [٤] مغردٌ فوق ساق

وقوله :

دِيننـا فى السَّماع دينُ مدِينىٍّ وفى شُربنا الشرابَ عراقى[٥]

---

(١) انظر : العقد ج ٣ ص ٢٨٠ وما بعدها (ط . الشرقية – القاهرة) .
(٢) ذكر الدكتور أحمد أمين هذه الزيارة . انظر كتابه . ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٥ .
(٣) انظر : المقتبس لابن حيان (الجزء الذى نشره القس ملشور أنطونيا) ص ٤٣ وما بعدها ، و ٩٧ وما بعدها .
(٤) ساق حر : هو الطائر المسمى بالقمرى .
(٥) يريد أن يشير إلى أنه على مذهب مالك فى إباحة السماع ، وعلى مذهب أبى حنيفة فى إباحة شرب النبيذ . والأبيات واردة فى : يتيمة الدهر ج ٢ ص ٨ .

ومما يصور تحرره أيضاً فى الشطر الأول من حياته قوله :

بزمـــام الهوى أمتُّ إليـــهِ ... وبحكم العُقـــار أقضى عليـــه
بأبى من زهـــا علىّ بوجـــه ... كاد يدمىَ لما نظرتُ إليـــه
ناولَ الكأس واســـتمال بلحظ ... فسقتنى عينـــاه قبـــل يديه[1]

ولما تقدمت السن بابن عبد ربه تاب وأناب. وأصبح أميل إلى الزهد، ومن شواهد ذلك قوله :

ألا إنما الدنيـــا غَضَارة أيكة ... إذا اخضر منها جانبٌ جف جانب
هى الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها ولا اللذات إلا مصائب
وكم سَخنت بالأمس عينٌ قريرة ... وقرّت عيون دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عينـــاك فيهـــا بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب[2]

وشعر ابن عبد ربه لا يلتزم اتجاهاً واحداً من تلك الاتجاهات التى كانت معروفة فى عهده ، وإنما هو شعر يسير فى أكثر تلك الاتجاهات . ولكن بلا فقدان لشخصية الشاعر أو انمحاء لملامحه الخاصة ، بل مع ظهور شخصية متميزة ذات ملامح واضحة .

فابن عبد ربه شاعر قد مد الله فى أجله ، فعاصر مدارس عدة وشاهد اتجاهات مختلفة ، ثم هو قد كان رجلا محبًّا للقراءة ، مكثراً من تتبع الأساليب ، ومن هنا كانت حصيلته الأدبية غنية ، ومعرفته بكل الاتجاهات دقيقة . فإذا صادف ذلك كله طبعاً متخيراً وملكة متحررة ، كانت النتيجة تنقلا بين كل الأغصان وتغريداً لكل الألحان .

فهو رجل يسير بشعره فى الاتجاه المحافظ حيناً ، وفى الاتجاه المحدث أحياناً ،

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : اليتيمة ج ٢ ص ٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : المطرب لابن دحية ص ١٥٥ وفى : جذوة المقتبس للحميدى ص ٩٦ . وفى يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ٧ .

ثم هو يشارك أيضاً فى الأخذ بالاتجاه الشعبي ، ويسابق المتجهين إلى المذهب المحافظ الجديد ، الذى كان يغلب على شعره بعد نضجه .

لكن ترك ابن عبد ربه للتقيد بمذهب خاص لم يخف شخصيته ولم يمح ملامحه ؛ فشعره يتسم بسمتين واضحتين هما : البساطة والغنائية . فأكثر شعره تتضح فيه بساطة الفكرة ، بحيث لا تظهر فيها محاولة لتعقيد أو تركيب أو تفلسف . كذلك أكثر صوره الشعرية تبدو بسيطة ، بحيث يسهل إدراكها وتوشك أن تلمس وتحس . وألفاظه أيضاً تأتى جلية واضحة ، بحيث لا تحتاج غالباً إلى تفسير . وكذلك أسلوبه ، يبدو بسيطاً سهلا ، ويبلغ من السهولة أحياناً أن يذكر جزء من البيت فيوشك أن يكمله السامع .

واستمع إلى قوله فى بعض انتصارات الأمير عبد الله على الثائر ابن حفصون لتحس تلك البساطة :

هو الفتح منظوماً على إثره الفتحُ ... وما فيهما عهد ولا فيهما صلح
سوى أن صفحاً كان من بعد قدرة ... وأحسن مقرون إلى قدرة صفح
ومُغربة تغبرُّ فى النقع كتهـا ... وتخضر طوراً كلما بلها الرشح[1]
تراهُنَّ فى نضح الدماء كأنمـا ... كساها عقيقاً أحمراً ذلك النضح
تطير بلا ريش إلى كل صيحة ... وتسبح فى البر الذى ما به سبح
عليهـا من الأبطال كل ممارس ... يرى أن جد الحرب من بأسه مزح
يعـدونه الأعـداء كربا عليهمُ ... على أنه طلق لنـا وجهـه السمح
وكان ابن حفصون يعـد جياده ... سراحين قبل اليوم فهى لنا سرح[2]
نجا مستكنا تحت جنح من الدجى ... وليس يؤدى شكر ما أنعم الجنح

(١) المغربة : الخيول الكثيرة العدو . والكت : جمع كيت ، وهو ما خالط حمرته قتوء .
(٢) السراحين : جمع سرحان ، وهو الذئب أو الأسد ، والسرح المال السائم .

دعته مُنًى كانت عليه مَنيــة فترحًا له منها وقل له الترح [١]

على أن تلك البساطة لم تكن دائماً مصدر جمال لشعر ابن عبد ربه ؛ فقد كانت أحياناً تصل إلى درجة السطحية أو التفاهة ، ومن ذلك قوله يمدح الأمير المنذر بن محمد :

بالمنــذر بن محمــد شــرفت بلاد الأندلسْ
فالطــير فيهــا ســاكن والوحش فيهــا قد أنس [٢]

وقوله فيمن اسمه أبو العباس :

الله جرَّدَ للنــدى والباسِ ســيفًا فقلده أبا العبــاسِ
ملك إذا استقبلت غــرة وجهه قبض الرجاء إليك روح اليــاس
وبه عليك من الحياء سكينة ومحبــة تجرى مع الأنفــاس
وإذا أحب الله يومًا عبــده ألقى عليــه محبــة للنــاس [٣]

أما السمة الثانية من سمات شعر ابن عبد ربه ، وهى الغنائية ، فنعنى بها الغنائية بالمعنى الخاص [٤] ، التى تتمثل فى غلبة الجانب الموسيقى واتضاح العنصر العاطفى ، وشيوع الرقة والسلاسة . فأكثر شعر ابن عبد ربه تتضح فيه تلك السمة الغنائية وخاصة ما كان متصلا بموضوع غنائى بطبعه .

ومن ذلك قوله [٥] :

ودَّعتنى بزفــرة واعتنــاقِ ثم قالت : متى يكون التــلاقِ

---

(١) وردت هذه الأبيات ضمن قصيدة فى: المقتبس لابن حيان نشر ملشور أنطونيا ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ورد هذان البيتان فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣ .

(٣) وردت هذه الأبيات فى : العقد الفريد ج ١ ص ٨٢ .

(٤) لأن كل ما سوى شعر الملاحم والشعر التمثيلى يسمى شعراً غنائياً بالمعنى العام للغنائية .

(٥) وردت هذه الأبيات فى : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٢١ وفى : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٣ .

وتصدت فأشـــرق الصبح منها بين تلك الجيـــوب والأطـــواق
يا ســـقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصـــرع العشاق
إن يوم الفـــراق أفظع يوم ليتنى مت قبل يوم الفـــراق

ومنه أيضاً قوله :

الجسم فى بلد والروح فى بلدِ يا وحشة الروح بل يا غربة الجسدِ
إن تبك عيناك لى يا من كَلفت به من رحمة ، فهما سهمان فى كبدى[1]

وتلك السمة فى شعر ابن عبد ربه — وهى سمة الغنائية — مصدر حرارة شعرية له ، ومبعث إيحائية فنية فيه . وهو يقوى ويضعف تبعاً لحظه من تلك السمة الشعرية الأصيلة.

هاتان هما أهم سمات شعر ابن عبد ربه ، فإذا أضيف إليهما تحرره ، وعدم تقيده باتجاه فنى خاص ، تكونت الصورة الكاملة لشاعريته .

وقد جانب الدقة قول المرحوم الأستاذ أحمد ضيف ، فى شعر ابن عبد ربه : إنه كان « من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء»[2] . نعم قد جانب هذا القول الدقة ، لأن ابن عبد ربه صاحب هذا الشعر المطبوع الذى رأينا بعض نماذجه ، والذى قيل [3] إنه جُمع فى نيف وعشرين مجلداً — لا يمكن أن يتصور رجل صناعة وحب للكلام الجميل ، كما لا يمكن أن يسلم بأنه ليس من الشعراء الموهوبين .

كذلك ليس من الأحكام التى يطمئن إليها الباحث ، قول المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، فى ابن عبد ربه : إنه يسير فى ركاب المشارقة ، « ويجتهد ما استطاع أن يأخذ

---

(١) هذان البيتان واردان فى : جذوة المقتبس الحميدى ص ٩٥ وفى : المطرب لابن دحية ص ١٥٣ .
(٢) انظر كتابه : بلاغة العرب فى الأندلس ص ٩١ .
(٣) انظر : جذوة المقتبس الحميدى ص ٩٤ .

معانيهم ويزيد عليها ويختار فى كل نوع من الشعر إماماً من المشارقة ؛ فطوراً إمامه صريع الغوانى ، وطوراً أبو العتاهية . وغيرهم ؛ لم يتحرر تحرراً كافياً ولم يصغ إلى قلبه فقط»[١].

نعم ليس هذا القول من الأحكام التى يطمئن إليها الباحث ، وذلك لأن ابن عبد ربه لم يكن يسير فى ركاب المشارقة . وإنما كان يعارضهم ، ويهدف إلى التفوق عليهم . وكان مدفوعاً إلى ذلك بثقافته الأدبية الواسعة وطبعه الفنى الأصيل وروحه الأندلسى الطموح المتفق مع الاتجاه العام لعصره ؛ حيث كان الأندلسيون يحاولون دائماً تأكيد ذواتهم الأندلسية ، وإثبات عدم تخلفهم عن المشارقة . فهو لم يكن يأخذ معانى المشارقة ؛ وإنما كان يحاول أن يثبت قدرته على الإتيان بمثلها أو بأحسن منها . وهو لم يكن يتخذ لنفسه إماماً من شعراء المشرق فى كل فن ؛ وإنما كان يعارض هؤلاء الأئمة ؛ ليثبت أنه مثلهم أو أقدر منهم . وهو لم يجانب التحرر ويترك الإصغاء إلى قلبه ؛ وإنما تحرر فلم يلتزم مذهباً معيناً ، وأصغى إلى قلبه فقال فى كل أحاسيسه وخلجاته . وانظر إلى قوله فى معارضة مسلم بن الوليد ، ثم تعليقه هو على تلك المعارضة ، لترى أنه ما كان يسير فى ركاب شعراء المشرق . وإنما كان يحاول أن يسبقهم . يقول ابن عبد ربه فى معارضة قصيدة مسلم التى مطلعها . أديرا علىّ الراح لاتشربا قبلى :

أتقتلنى ظلماً وتجحدنى قتلى ... وقد قام من عينيك لى شاهدا عدل
أطلاب ذَحْلِى[٢] ليس بى غير شادن ... بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلى
أغارَ على قلبى فلما أتيته ... أطالبه فيه أغار على عقلى
بنفسى التى ضنت بردّ سلامها ... ولو سألت قتلى وهبت لها قتلى
إذا جئتها صدت حياء بوجهها ... فيعجبنى هجر ألذ من الوصل
وإن حكمت جارت على بحكمها ... ولكنّ ذاك الجور أشهى من العدل

(١) اقرأ هذه الأحكام فى كتاب الأستاذ أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢٤ .
(٢) الذحل : الثأر .

كتمتُ الهوى جهدى فجرده الأسى بماء البكا هذا يخط وذا يمحى
وأحببت فيها العذل حبًّا لذكرها فلا شيء أشهى فى فؤادى من العذل
أقول لقلبى كلما ضامه الأسى إذا ما أتيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيى تعرضتَ للهوى وأمرك لا أمرى وفعلك لا فعلى
وجدتَ الهوى نصلا من الموت مغمداً فجردتَّه ثم اتكيت على النصل
فإن تك مقتولا على غير ريبة فأنت الذى عرضت نفسك للقتل[1]

ثم يعقب ابن عبد ربه على هذه القصيدة بقوله : « فمن نظر فى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه ، لم يفضل شعر مسلم عنده إلا بفضل التقدم »[2] .

وأخيراً ليس من الآراء التى يمكن التسليم بها قول المستشرق الإسبانى الأستاذ « يالنثيا » Palencia : « إنه كان شاعر بلاط فقط ولم يكن ذا شاعرية ممتازة »[3] .

فالحق أن ابن عبد ربه لم يكن شاعر بلاط فقط ؛ وذلك لأن له بجانب شعره فى بنى أمية الأندلسيين ، أشعاراً كثيرة فى شتى الأغراض . والحق أيضاً أن شعره الذى بين أيدينا ، يدل على شاعرية ممتازة . وحسبنا فى تقدير شاعريته رأى الشاعر المشرق الكبير أبى الطيب المتنبى الذى تتضمنه تلك القصة :

لقى أبو الوليد بنُ عسال الأندلسى أبا الطيب المتنبى فى مسجد عمرو بن العاص ، وبعد حديث جرى بينهما قال المتنبى : ألا أنشدنى لمليح الأندلس — يعنى ابن عبد ربه — فأنشد قوله :

يا لؤلؤا يسبى العقول أنيقا ورشًا بتقطيع القلوب رفيقا

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر : Palencia, Historia de la Literatura Arabigo - Espana, p. 55.
وانظر أيضاً تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة الكتاب السابق) ص ٦٢ ، ٦٣ .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثلـــه ورداً يعـــود من الحيـــاء عقيقا
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهـــه أبصـــرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من ردفه ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكمل الأندلسى إنشاده ، استعاده المتنبى ، ثم صفق بيده وقال : « يا بن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبواً»[١] .

هذا وليس بين أيدينا ديوان لشعر ابن عبد ربه ، على الرغم من أن ديوانه كان غنيًّا وضخماً فيما يبدو . فقد ذكر بعض من ترجموا للشاعر أن شعره جمع للحكم المستنصر ، فجاء فى نيف وعشرين مجلداً[٢] ، ولكن هذا الديوان ذا المجلدات العديدة قد ضاع ، ولم يبق من شعر ابن عبد ربه إلا مجموعة من القصائد والمقطوعات المتفرقة بين كتب الأدب والمختارات والتراجم ، مثل كتابه العقد ، وكتاب يتيمة الدهر للثعالبى ، وكتاب المقتبس لابن حيان ، وكتاب المطرب لابن دحية[٣] .

وقد عُرف ابن عبد ربه بأشعار تسمى «الممحّصات» . وهى أشعار قالها بعد توبته فى الشطر الأخير من حياته ، وعارض بها أشعاراً كان قد قالها أيام لهوه ؛ فكأن تلك الأشعار الأخيرة قد محصت ما كان من أشعاره الأولى . ومن أمثلة تلك الممحصات قوله :

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدرُ ولا يقضّى له من عيشه وطر
عاين بقلبك إن العين غافلة عن الحقيقـــة واعلم أنهـــا سقر
سوداء تزفر عن غيظ إذا ســـعرت للظالمين فلا تبـــقى ولا تذر
إن الذين اشـــتروا دنيا بآخرة وشقوة بنعيم ، ســـاء ما تجروا

---

(١) انظر : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ش ٢٢٢ — ٢٢٣ .
(٢) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ٩٤ .
(٣) ومثل : نفح الطيب للمقرى ، ومطمح الأنفس لابن خاقان ، والبيان المغرب لابن عذارى ، ورايات المبرزين لابن سعيد ، والقطعة التاريخية التى نشرها بروفنسال وجوث فى تاريخ الناصر .

يا من تلهى وشيب الرأس يندبه ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجر
أنت المقول له ما قلت مبتدئًا « هلا ادكرت لبين أنت مبتكر »[١]

وهو يشير بهذا البيت الأخير إلى قطعة له سابقة ، كان قد قالها أيام اللهو ، بمناسبة عزم محبوبه على الرحيل . وسقوط المطر الذى حال بين ذلك المحبوب والسفر . وفى تلك القطعة يقول ابن عبد ربه :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكرُ هيهات يأبى عليك الله والقــدر
ما زلت أبكى حذار البين ملتهفًا حتى رثى لىَ فيك الريح والمطر
يا برَده من حيا مزن على كبد نيرانهــا بغليــل الشوق تستعر
آليت ألا أرى شمسًا ولا قمراً حتى أراك فأنت الشمس والقمر[٢]

وكما عرف ابن عبد ربه بالممحصات ، عرف كذلك بأرجوزته فى الخليفة عبد الرحمن الناصر ؛ تلك الأرجوزة التى مجد فيها الخليفة ووصف حروبه وغزواته[٣] . والحق أن تلك الأرجوزة أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ؛ فليس فيها من عناصر الشعر شىء ، ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد فى نتاجه التاريخى لا فى تراثه الفنى .

هذا ابن عبد ربه الشاعر . على أن الشعر لم يكن كل نشاطه الأدبى ؛ فهو قد كان أيضاً ناثراً من كبار كتاب فترة الخلافة. وسوف نفصل القول فى ذلك حين نتحدث عن النثر فى القسم الخاص به من هذا الفصل .

---

(١) وردت هذه القصيدة فى : جذوة المقتبس ص ٩٥ — ٩٦ . وفى المطرب ص ١٥٤ .
(٢) انظر هذه القطعة فى المصدرين السابقين .
(٣) جاءت هذه الأرجوزة فى العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٨ — ٣٠٣ .

ابن هانئ :

هو أبو الحسن[١] محمد بن هانئ الأزدى . يتصل نسبه من جهة أبيه بالمهلب بن أبى صفرة . وكان أبوه هانئ يستوطن أولا إحدى قرى شمال إفريقيا ، ثم هاجر إلى الأندلس ، حيث ولد ابنه محمد بمدينة إشبيلية سنة ٣٢٠ أو ٣٢٦ على خلاف فى ذلك[٢] . وقد كان الوالد أديباً شاعراً ، فنشأ ابنه بين إشبيلية وقرطبة وإلبيرة نشأة أدبية شعرية فحصل حظاً وافراً من أدب العرب ودراسة لغتهم وأشعارهم ، ثم قال الشعر ونبغ فيه . واتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، غير أن مقامه بالأندلس لم يستمر ، بل كان ما حمله حملا على الهجرة إلى شمال إفريقيا ، وهو ابن سبعة وعشرين عاماً . ذلك أنه كان فيما يبدو قد تعلق بالدعوة الفاطمية وعرف ذلك عنه ، ولعله صرح بشىء من ذلك فى شعره . وكانت الدعوة الفاطمية مرفوضة من حكومة الأندلس لأنها كانت تمثل خطراً على هذه الحكومة ، وكان فى تعلق ابن هانئ بتلك الدعوة ، ثم اتصاله بصاحب إشبيلية الذى هو حاكم من قبل الخليفة الأندلسى ؛ كان فى ذلك خطر لا على ابن هانئ وحده وإنما على حاكم إشبيلية أيضاً . ومن هنا نصح هذا الحاكم ابن هانئ بمغادرة إشبيلية والأندلس جميعاً ، فهاجر إلى عدوة المغرب .

وقد تعود بعض المترجمين لابن هانئ أن يذكروا فى سبب هجرته للأندلس أنه كان متهماً بالفلسفة كثير الانهماك فى الملذات . وهذان السببان غير مقنعين ؛ فالفلسفة لم تكن فى أيام ابن هانئ تهمة توجب المطاردة ، بل قد ثبت أن كثيرين من أهل الأندلس

---

(١) يكنى أيضاً أبا القاسم . انظر فى ترجمته وأخباره : جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٥٧ ، والمطرب لابن دحية ص ١٩٢ — ١٩٥ . والتكملة لابن الأبار رقم ٣٥٠ . والإحاطة لابن الخطيب ج ٢ ص ٢١٢ وما بعدها . ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٥ ، ٦ ونفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٧ . ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٨٤ — ٨٩ .

(٢) ذكروا أن وفاته كانت سنة ٣٦٢ وأنه مات وعمره ٣٦ سنة أو ٤٢ ، وبطرح سنه من سنة وفاته نحصل على سنة ميلاده ، فلما حصل خلاف فى سنه ترتب عليه خلاف فى سنة ميلاده .

كانوا يشتغلون بها فى تلك الآونة ، التى عرفت بحرية الفكر واحترام كل الاتجاهات وتقدير كل العلوم . كذلك لم يكن الانهماك فى الملذات مما يسبب إخراج أندلسى من بلده ؛ فقد كان حب الشراب والسماع والمتاع مما يشيع بين الأندلسيين فى أكثر الأحايين ، ولم يكن ابن هانئ بدعا بين مواطنيه فى ميله إلى الملذات ؛ لهذا كله يرجح أن تكون هجرته لسبب سياسى هو اتصاله بالدعوة الفاطمية . ولعل صلته مباشرة بالحكام والقواد الفاطميين بعد هجرته إلى شمال إفريقيا ، ثم تمكنه من الفكرة الفاطمية ، ومعرفته بمصطلحات الشيعة — كما يدل على ذلك شعره — لعل ذلك كله مما يؤيد هذا التفسير لهجرة ابن هانئ من الأندلس[١] .

ومهما يكن من أمر . فقد اتصل ابن هانئ فى شمال إفريقيا بالقائد جوهر الصقلى ومدحه ، ثم اتصل ببعض الولاة ونال جوائزهم على ما كان له فيهم من مدائح[٢] . وأخيراً وصل خبره إلى المعز لدين الله الفاطمى . فطلب أن يتوجه إليه ، فسار ابن هانئ إلى لقائه ، وكانت له فيه أشعار قوبلت بالإنعام والتقدير . ولما توجه المعز إلى مصر ، شيعه ابن هانئ . ثم رجع إلى المغرب لأخذ عياله ، فتجهز وتبعه ، ولما وصل إلى برقة ، انتهت حياته نهاية غامضة . فقيل : إن شخصاً من أهلها استضافه ، فأقام عنده أياماً ، ثم كانت عربدة عليه فى مجلس أنس سببت قتله . وقيل : إنه خرج سكران من دار مضيفه ، فنام فى الطريق وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته . وقيل : إنه وجد فى ساقية من سواقى برقة مخنوقاً بتكة سراويله . وأغلب الظن أن ابن هانئ قد قتل قتلا سياسيًّا على يد بعض أنصار حكومة قرطبة المناهضة للفاطميين[٣] . وليس أدل على ذلك من

---

(١) انظر : تبيين المعانى فى شرح ديوان ابن هانى للدكتور زاهد على ص ٢٠ (مقدمة) .

(٢) كان أكثر مدحه لجعفر ويحيى ولدى على الملقب بابن الأندلسية . وكان جعفر والياً على مدينة الزاب وكان أخوه مساعداً له وكانا فى تلك الآونة موالين للفاطميين .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٢ (مقدمة) .

هذا الغموض الشديد الذى يكتنف قتل ابن هانئ أو موته . وعلى أية حال . قد كانت نهاية الشاعر سنة ٣٦٢ هـ بعد أن بلغ من العمر اثنتين وأربعين سنة ، أو ستًّا وثلاثين . على خلاف فى ذلك .

هذا وقد كان فى سلوك ابن هانئ كثير من الاستهتار . كما كان فى عقيدته كثير من القلق ؛ فهو قد كان منهمكا فى الملذات ، كما كان لا يتحرج من ذكر ما يمس الدين وما يدل على فساد العقيدة . وشعره فى المعز الذى كان يرفعه إلى درجة التأليه دليل على هذا الاستهتار فى السلوك والعقيدة جميعاً . وسوف ترد أمثلة كثيرة تؤيد هذا الجانب فى شخصية ابن هانئ .

وشعر ابن هانئ يسير فى الاتجاه المحافظ الجديد الذى كان على رأسه بالمشرق فى تلك الفترة أبو الطيب المتنبى ، بل إن ابن هانئ قد تأثر كثيراً بأبى الطيب حتى كان الأندلسيون يقارنونه به ، غير أن شاعرنا كان مع ذلك ذا شخصية شعرية متميزة . وسمات فنية خاصة .

وكان ابن هانئ قد عرف شعر البحترى وأبى تمام[1] . كما درس شعر أبى الطيب وتعلق بمذهبه[2] ، ثم كانت قريحته الشعرية وملكته الفنية ، فكان اختياره للاتجاه المحافظ الجديد أولا ، ثم تميزه بسمات خاصة ثانياً .

ومن هنا لم يكن شعر ابن هانئ شعراً يحول فيه اللون الخاص ، ويعتمد فقط على الشاعرية التى تمدها القراءة ، ويعينها الاطلاع على نتاج كالذى قرئ وشعر كالذى

---

(١) من أدلة ذلك قوله :

من أين أنكر فضلكم ولو انى ... كأبى عبادة أو أبى تمام

(الديوان ص ١٨٤) .

(٢) اقرأ قصيدته فى رجل كان قد أعاره كتاباً فيه شعر المتنبى ثم أساء استرداده منه (فى ص ٧٧ من ديوان ابن هانئ) .

حُصِّل ، وإنما كان لشعر ابن هانئ هذا اللون المميز ، والطابع الخاص ، الذى لا يعدو تحصيل صاحبه أن يكون زاداً كالذى ترشفه النحلة من الأزهار المختلفة ، لتخرجه بعد ذلك شيئاً آخر هو العسل الذى فيه طبيعة النحلة وعملها ، إلى جانب طبيعة الرحيق وعنصره .

أما أهم تلك السمات الفنية الخاصة التى تميز شعر ابن هانئ برغم اتجاهه المحافظ الجديد ، فسمتان هما : الحدة الشعرية ، والمذهبية السياسية . والسمة الأولى وهى سمة الحدة تتضح فى شعر ابن هانئ وتشمل مضمونه وشكله على السواء . فهو فنان حاد فى فنه الأدبى ، صارخ فى لونه الشعرى . وحدته تبدو فى معانيه وصوره ، وفى ألفاظه وتعابيره ، بل فى أوزانه وقوافيه .

أما الأفكار ، فيلاحظ أن ابن هانئ يتعمقها ، ويبالغ أحياناً فيها ، ولا يهمه بعد ذلك أيقبلها العقل أم لا يقبلها ؛ بل أينكرها الدين أم لا ينكرها . فهو يقول مثلا فى سيفه :

لى صارم وهو شيعىٌّ كحامله ... يكاد يسبق كرَّاتى إلى البطلِ
إذا المعــز معــز الدين سلطه ... لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل[1]

وهذه حدة مقبولة بل جميلة ؛ لأن الشاعر خفف منها فى البيت الأول بقوله «يكاد» . ثم بتلك الصورة الفنية التى تخيل السيف يسابق صاحبه إلى عدوه . كما خفف منها فى البيت الثانى أن الآجال غير معروفة ، فكون السيف لا يرتقب مدة الأجل ليقضى على العدو ، شىء مقبول جميل .

لكن لابن هانئ أحياناً حدة لا يقبلها العقل ، وقد يرفضها الذوق ويأباها الدين ؛ فهو يقول فى كرم بعض ممدوحيه :

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٦٩ .

من كان أول نقطه فى مهده أنَ قال أهلا للعفاة وسرحبًا [١]

و يقول فى أهمية آخر :

هو علة الدنيـــا ومن خلقت له ولعلةٍ ما ، كانت الأشياء [٢]

ويقول فى تقديسه :

إمام رأيتُ الدين مرتبطًا به فطاعته فوز وعصيانه خسر

أرى مدحـــه كالمدح لله إنه قنُوت وتسبيح يُحط به الوزر [٣]

ويقول فى سلطانه :

ما شئتَ لا ما شـــاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحـــد القهـــار

وليس من شك فى أن الحدة تكون مقبولة حينما تكون عمقاً فى الفكرة وصدقاً فى التجربة وحرارة فى الإحساس . أما حين تكون مبالغة يرفضها الذوق أو العقل أو الدين ، فإنها تأتى سخيفة ساقطة ، ككثير مما قاله ابن هانئ فى ممدوحيه وخاصة المعز الفاطمى .

وابن هانئ حاد كذلك فى صوره الشعرية ؛ فهو يوسع رقعتها ويبرز خطوطها ، ويظهر ألوانها ، ولا يعنيه بعد ذلك أجاءت الألوان صارخة أم هادئة ، ولا يهمه أأتت الخطوط متناسقة أم متنافرة . فهو يقول مثلا فى تصوير أكول :

يا ليت شعرى إذا أوما إلى فمه أحلقـــه لهوات أو ميـــادينُ

كأنهـــا وخبيث الزاد يضـــرمها جهنم قذفت فيهـــا الشياطين

تبارك الله ما أمضى أســـنته كأنما كل فك منـــه طاحون

كأن بيت ســـلاح فيـــه مختزن مما أعـــدته للرســـل الفراعين

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٨ .

(٢) ديوان ابن هانئ ص ٥ .

(٣) ديوان ابن هانئ ص ٨١ .

(٤) ديوان ابن هانئ ص ٨٨ .

كأنما الحمـــل المشوى فى يده ذو النون فى الماء لما عضه النون
كأن فى فكه أيتـــام أرمـــلة أو باكيات عليهن التبابينُ [١]

وهذا من جميل التصوير ؛ لأن المقام يحتمل المبالغة ؛ فهو مقام سخرية تتحمل هذا التعبير « الكاريكاتيرى » . غير أن ابن هانئ فى مقام آخر يصل فى حدته التصويرية إلى درجة تفسد الصورة ؛ ومن ذلك قوله فى وصف ليلة . يصورها غادة أرسلت من ظلامها شعراً طويلا مسترسلا ، ولبست من أنجمها شنفاً فى أذنها :

أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحْفا وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا[٢]

ومن ذلك أيضاً قوله فى معذّر مورد الخد :

وكأن صفحـــة خـــده وعـــذاره تفاحة رميت لتقتـــل عقـــربا[٣]

ومنه كذلك قوله فى البرق :

بل ما لهذا البرق صِلاّ مطرقا ولأىّ خيـــل الشائمين أتيحـــا[٤]

وابن هانئ كذلك حاد فى ألفاظه وعباراته ؛ فهو يؤثرها فخمة ذات جرس عال ورنين واضح ، وهو فى كثير من الأحيان موفق فى ذلك . ومن هذا قوله :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمعُ وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق ســـد بمثـــله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

---

(١) التبابين : جمع تبان – بضم التاء وتشديد الباء – وهو سروال صغير . وقد وردت هذه الأبيات فى : ديوان ابن هانئ ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٢) الوارد : الشعر الطويل . والوحف : الشعر الكثير الأسود . والشنف : ما يعلق فى أعلى الأذن . والبيت فى ديوان ابن هانئ ص ١٦ .

(٣) ديوان ابن هانئ ص ١٦ .

(٤) الصل : الحية أو الدقيقة الصفراء . والبيت فى ديوان ابن هانئ ص ٣٠ .

فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع ولم أدر إذ شيعت كيف أودع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة وإنى بمن قـاد الجيـوش لمولع
وأين ؟ ومالى بين ذا الجمع مسلك ولا لجوادى فى البسيطة موضع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرارَ الكرى جفن ولا بات يهجع (١)

على أنه فى أحيان أخرى تدفعه الحدة المؤثرة للفظ الفخم والرنين الواضح ، إلى الصخب والقعقعة والإتيان بالغريب . ومن هذا قوله :

أصاخت فقالت : وقْعُ أجردَ شيظَمٍ وشامت فقالت : لمع أبيضَ مِخذَمِ
وما ذُعرتْ إلا لجرس حليِّهـا ولا لمحت إلا بُرَّى فى مُخَذَّمِ (٢)

ومنه أيضاً قوله :

أقول دمى وهى الحسان الرعابيبُ ومن دون أستار القباب محاريب (٣)
نَوَى أبعدت طائية ومزارها ألا كل طائى إلى القلب محبوب
سلوا طيِّئ الأجبال أين خيامها وما أجأٌ إلا حصان ويَعبوب (٤)
همُ جنَبوا ذا القلبَ طوع قيادهم وقد يشهد الطِّرفَ الوغى وهو مجنوب (٥)
وهم جاوزوا طلح الشواجن والغضا تخب بهم جُرْدُ اللقاء السراحيب (٦)

---

(١) غرار الكرى : القليل من النوم . والأبيات فى ديوان ابن هانئ ص ٩٨ – ٩٩ .

(٢) أصاخت : أصغت . والشيظم من الخيل : الطويل الجسم . وشامت : تطلعت . والمخذم . السيف القاطع . والبرى : جمع برة ، وهى كل حلقة من سوار وقرط وخلخال . . والمخذم : موضع الخلخال من الرجل (والبيتان من مطلع قصيدة ص ١٧٢ ديوان) .

(٣) الرعابيب ؛ جمع رعبوبة ورعبوب ورعبيب وهى : الجارية البيضاء الحسنة الحلوة الناعمة . والمحاريب : جمع محراب . وهو الكثير الحرب وخوض المعارك .

(٤) طيئ : قبيلة من العرب . وأجأ : أحد جبالهم . واليعبوب من الخيل : السريع الطويل .

(٥) جنبه : قاده إلى جنبه ، فهو جنيب ومجنوب ومجنب . والطرف : الكريم من الخيل .

(٦) الشواجن : جمع شاجنة وهى ضرب من الأودية كثير الشجر . والطلح : شجر عظيم والموز . والغضا : شجر عظيم واحدته غضاة . والسراحيب . جمع سرحوب وهى الفرس الطويلة الحسنة .

وقد عيب ذلك على ابن هانئ . وهو عيب من غير شك . إلا أن من الإنصاف أن يقال : إن هذا العيب ليس عامًّا فى شعره ولا فى أكثره حتى يحكم به على فنه جملة . ومن هنا كان أبو العلاء غير دقيق الحكم حين اعتبر شعر ابن هانئ شيئاً لا طائل تحته وقال : « ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً »[١] . فالحق أولا أن أكثر شعر ابن هانئ لا تصل فيه حدة التعبير إلى الصخب والجلبة والقعقعة ، وإنما أكثره فيه ميل حقيقة إلى اللفظة الفخمة ، والعبارة الجزلة ، والأسلوب ذى الموسيقى الواضحة . وهذا لون من التعبير ومذهب فى الأداء ، فكما يحب البعض التعبير المهموس والأداء الهادئ ، يؤثر البعض الآخر الموسيقى الرنانة والأنغام العالية . والحق ثانياً أن حب أبى العلاء الشديد للمتنبى وشعره ، هو الذى جعله يهجن من شعر ابن هانئ الشاعر الأندلسى ، الذى كان مواطنوه فى المغرب يقارنونه بالمتنبى فى المشرق[٢] . وإلا فكيف يصدق حكم أبى العلاء على مثل قول ابن هانئ :

فتكات طرفك أم سيوف أبيك ... وكئوس خمر أم مراشف فيك
أجلادُ مرهفة وفتكُ محاجر ... ما أنت راحمة ولا أهلوك
يا بنت ذى البرد الطويل نجاده ... أكذا يكون الحكم فى ناديك
قد كان يدعونى خيالك طارقًا ... حتى دعانى بالقنا داعيك
عيناك أم مغناك موعدنا وفى ... وادى الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنة الكرى وسَروا فلو ... عثروا بطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة ... لمَّا تمايل عطفك اتهموك[٣]

وابن هانئ كما هو حاد فى معانيه وصوره وألفاظه . حاد كذلك فى موسيقى شعره ،

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥ .
(٢) انظر المصدر السابق .
(٣) انظر هذه الأبيات فى : ديوان ابن هانىء ص ١٣٤ .

فهو يختار غالباً تلك الأوزان الطوال ذات التفاعيل الكثيرة والنغم الواضح والرنين العالى . ومن هنا كانت أكثر قصائده من الطويل والبسيط والكامل ؛ وقليل من شعره هو الذى جاء على غير هذه الأوزان . وقلما نجد له شعراً من الأوزان القصيرة ذات الموسيقى البسيطة الهادئة . وكما يفعل ابن هانئ فى الأوزان يفعل فى القوافى ، فكثير من شعره يختم بالقوافى الفخمة التى تملأ الفم وتزحم السمع ، بل إن قوافيه تأتى أحياناً على حروف لم تؤلف فى القوافى كثيراً ، كالثاء والخاء والطاء . ومن أمثلة حدة ابن هانئ فى موسيقى شعره وزناً وقافية قوله :

لمن صوبلجان فوق خدك عابثُ ... ومن عاقد فى لحظ طرفك نافث
ومن مذنب فى الهجر غيرك مجرم ... ومن ناقض للعهد غيرك ناكث[1]

وقوله كذلك :

ألؤلؤٌ دمع هذا الغيث أم نقطُ ... ما كان أحسنه لو كان يلتقط
بين السحاب وبين الريح ملحمة ... معامع وظبى فى الجو تخترط[2]

وإيثار ابن هانئ لتلك القوافى الفخمة أو غير المألوفة قد يجره أحياناً إلى التورط فى الغريب المعمَّى كقوله :

سرى وجناح الليل أقتم أفتخُ[3] ... ضجيع مهاد بالعبير مضمَّخ
فحييتُ مزورَّ الخيـــال كأنه ... محجب أعلى قبة الملك أبلخ[4]

وأخيراً تبدو حدة ابن هانئ فى كم أعماله الشعرية ؛ فهى فى الغالب قصائد . وأغلب

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ٢٥ .
(٢) تخترط : تستل .
(والبيتان من مطلع قصيدة فى صفحة ٩٦ من ديوان ابن هانئ) .
(٣) أفتخ ، من الفتخ – محركة – وهو استرخاء المفاصل أو عرض القدم والكف وطولهما .
(٤) الأبلخ : المتكبر .
(والبيتان فى شرح ديوان ابن هانىء ص ١٨٣) .

تلك القصائد من النوع الطويل المفرط الطول ، حتى إن بعضها يتجاوز المائتى بيت .

هذه هى السمة الأولى من سمتيه البارزتين . أما الثانية — وهى المذهبية السياسية — فتبدو فى كون ابن هانئ شاعراً مذهبياً ، لا يؤمن بالفن فقط ، وإنما يستخدمه فى تدعيم مذهب يميل إليه ويدعو له . فابن هانئ قد اتصل بالحركة الشيعية وهو فى الأندلس ، وكانت السبب فى خروجه من بلده وهجرته إلى شمال إفريقيا . ثم إنه قد اتصل بزعماء الفاطميين اتصالا مباشراً بعد هجرته ، وعمل للدعوة الفاطمية . فكان لسانها الناطق وداعيتها ذا الصوت الجهير . ومن هنا كثرت فى شعره مصطلحات الشيعة وآراؤهم ، وبدت فى نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم ، واشتمل أسلوبه فى كثير من المواطن على الحجاج والجدل والتعليل والتدليل ومحاولة الإقناع المنطقى لا التأثير الوجدانى . وربما لا تخلو قصيدة من قصائده فى المعز ، من عشرات الأمثلة على ذلك . فهو يقول مشيراً إلى فكرة الإمامة :

إمام عدل وفى فى كل ناحية ... كما قضوا فى الإمام العدل واشترطوا[١]

ويقول مشيراً إلى فكرة العصمة :

مؤيد باختيار الله يصحبه ... وليس فيما أراه الله من خلل[٢]

ويقول فى فكرة ميراث آل البيت للحكم :

هو الوارث الأرض عن والدين ... أب مصطفى وأب مرتضى[٣]

ويقول فى فكرة تقديس الإمام :

من شعلة القبس التى عُرضت على ... موسى وقد جازت به الظلماء

من معدن التقديس وهو سلالة ... فخرت به الأجداد والآباء[٤]

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ٩٧ .

(٢) ديوان ابن هانئ ص ١٩٢ .

(٣) ديوان ابن هانئ ص ٢١٧ .

(٤) ديوان ابن هانئ ص ٥ ، ٦ .

ومثل هذه الأفكار الشيعية كثير واضح فى شعر ابن هانئ[١] ، ويكفى أن نطالع قصيدة واحدة من قصائده فى المعز الفاطمى لنستخرج عديداً من الأفكار والآراء الشيعية ، ولندرك ببساطة تلك المذهبية السياسية فى شعر ابن هانىء ، بالإضافة إلى معالم فنه الأخرى . يقول شاعرنا فى مدح المعز ، ويذكر دخول الفاطميين مصر :

تقول بنو العباس : هل فُتحت مصرُ ... فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر ... تطالعه البشرى ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصرٌ إليه وفودها ... وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت ... وأيديكمُ منها ومن غيرها صفر[٢]
فلا تكثروا ذكر الزمان الذى خلا ... فذلك عصر قد تقضّى وذا عصر
أفى الجيش كنتم تمترون رويدكم ... فهذا القنا العرّاض والجحفل المجرُ[٣]
وقد أشرقت خيل الإله طوالعًا ... على الدين والدنيا كما طلع الفجر
وذا ابن نبى الله يطلب وتره ... وكان حرىٍ أن لا يضيع له وتر
فكونوا حصيداً خامدين أو ارعووا ... إلى ملك فى كفه الموت والنشر
فإن تتبعوه فهو مولاكم الذى ... له برسول الله دونكم الفخر
وإلا فبعداً للبعيد فبينه ... وبينكمُ ما لا يُقرّبه الدهر
أفى ابن أبى السبطين أم فى طليقكم[٤] ... تنزلت الآيات والسور الغر
بنى نَتْلة ما أورث الله نتلة[٥] ... وما ولدت ، هل يستوى العبد والحر
وأنّى بهذا وهى أعدت برقّها ... أباكم فإياكم ودعوى هى الكفر
فدونكموها أهل بيت محمد ... صفت بمعز الدين جمّاتها[٦] الكدرُ

---

(١) انظر أمثلة كثيرة قد استخرجها الدكتور زاهد على فى مقدمته لشرح ديوان ابن هانئ ، المسمى تبيين المعانى.
(٢) الصفر بالضم ويثلث : الخالى .
(٣) القنا العراض : اللدن المهزة ، الذى إذا هز اضطرب . والجحفل المجر : الجيش العظيم .
(٤) المراد بالطليق : العباس عم الرسول ، لأنه أسر يوم بدر ، فأطلقه النبى صلى الله عليه وسلم بالفدية .
(٥) نتلة : هى أم العباس عم الرسول ، ويقال لها : تتيلة . وهى بنت جناب بن كلب .
(٦) الجمات : جمع جمة ، وهى البئر الكثيرة الماء .

فقد صارت الدنيا إليكم مصيرهـــا ... وصار له الحمد المضاعف والأجر
إمام رأيت الدين مرتبطًا به ... فطاعتـــه فوز وعصيانه خسر
أرى مدحه كالمدح لله إنه ... قنوت وتسبيح يحط به الوزر
فيا مالكًا هَدْيُ الملائك هـــديه ... ولكن نجر الأنبياء له نَجْر[1]
ويا رازقًا من كفه نشأ الحيـــا ... وإلا فمن أسرارها نبع البحـــر
ألا إنما الأيام أيامك التى ... لك الشطر من نعمائها ولنا الشطر
لك المجد منها يالك الخير والعـــلا ... وتبقى لنا منها الحلوبة والدَّر
لقد جدت حتى ليس للمال طالب ... وأعطيت حتى ما لمنفِسِه[2] قدر
فليس لمن لا يرتقى النجم همـــة ... وليس لمن لا يستفيد الغنى عذر
وددت لجيل قد تقادم عصرهم ... لو استأخروا فى حلبة العمر أو كروا
ولو شهدوا الأيام والعيش بعدهم ... حدائق والآمال مونقـــة خضـــر
فلو سمع التثويب[3] من كان رمة ... رفاتًا ولبى الصوت من ضمه القبر
لناديت من قد فوَّز[4] احيَ بدولة ... تقام لها الموتى ويرتجع العمر[5]

ولما كان ابن هانئ أقرب إلى أبى الطيب منه إلى أى شاعر آخر من شعراء الاتجاه المحافظ الجديد ، لاتفاقهما فى حدة الطبع أولا ، ودراسة ابن هانئ لشعر المتنبي وافتتانه بمذهبه ثانياً ؛ كان من مظاهر ذلك أخذ ابن هانئ لبعض أفكار المتنبي ، كقوله :

ألم يبد سرَّ الحب أن من الضنا ... رقيبًا وإن لم يهتك السر هاتكُ[6]

---

(١) النجر : الأصل كالنجار .
(٢) شيء منفس : كنفيس ، ثمين يتنافس فيه .
(٣) التثويب : الدعاء إلى الصلاة .
(٤) فوز : مات .
(٥) هذه الأبيات مختارة من قصيدة لابن هانئ . وهى كاملة فى ديوانه ص ٧٨ وما بعدها .
(٦) ديوان ابن هانئ ص ٢٨١ .

فإن هذا المعنى من قول المتنبي :

وإذا خامر الهوى قلب صب فعليه لكل عين دليل

ومن أخذ ابن هانئ لبعض معانى المتنبي قوله كذلك :

إنَّ ذل العزيز أفظع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف[١]

فهذا المعنى من قول المتنبي :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحالات ولا يلاقى الهوانا

وهذا مما يعاب على ابن هانئ . ومما يعاب عليه كذلك : المبالغة المفرطة التى تفضى أحياناً إلى الاصطدام بالعقل أو الذوق أو الدين ، وقد مضت نماذج لذلك . ثم تكرار المعنى الواحد فى عدة مواضع أحياناً . ومن ذلك قوله :

شهدتْ بمفخرك السموات العلا وتنزل القرآن فيك مديحا[٢]

ثم قوله فى قصيدة أخرى .

من يشهد القرآن فيه بفضله وتصدق التوراة والإنجيل[٣]

ثم قوله فى قصيدة ثالثة :

إن الخبير بكم أجد بخلقكم غيباً فجرد فيكم التنزيلا[٤]

ومن ذلك أيضاً قوله :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما ، كانت الأشياء[٥]

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٠٦ .

(٢) ديوان ابن هانئ ص ٣٢ .

(٣) ديوان ابن هانئ ص ١٤٢ .

(٤) ديوان ابن هانئ ص ١٤٧ .

(٥) ديوان ابن هانئ ص ٥ .

ثم قوله فى قصيدة ثانية :

من أجل هذا قدّر المقدور فى أمّ الكتاب وكُوّن التكوين[١]

ثم قوله فى قصيدة ثالثة :

هو الوارث الدنيا ومن خلقت له من الناس حتى يلتقى القُطْر والقطر[٢]

وأخيراً يؤخذ على ابن هانئ تورطه أحياناً فى التعبير الصاخب واللفظ الغريب . وقد سلفت أمثلة لهذا .

على أن ذلك كله لا يغض من قيمة الشاعر ، ولا يزحزحه عن الصف الأول بين شعراء الأندلس ؛ فهو من غير شك شاعر ممتاز ، يجمع إلى الأصالة الفنية التمكن من أدوات الشعر ، يحشد له غالباً المعنى العميق واللفظ القوى والعبارة المحكمة والصورة الرائعة والموسيقى الرنانة . كل هذا إلى طول نفس ووفرة نتاج .

وكما كان ابن هانئ أقدم شاعر أندلسى عرفناه متفرغاً للشعر ، كان كذلك أقدم شاعر أندلسى حفظت لنا الأيام ديوان شعره . فكل سابقيه ومعاصريه لم تبق الأيام من تراثهم إلا مختارات هنا وهناك ، قد تكثر وقد تقل . أما ابن هانئ فقد بقى له ديوان . ولعل السر فى ذلك اتصاله بالحركة الشيعية ؛ فالشيعة كانوا أصحاب مذهب ، لهم دعاة ورواة ، يشيعون أمجادهم وينقلون جميل الثناء عليهم ، وقد كان شعر ابن هانئ مادة صالحة لعمل هؤلاء الدعاة الرواة . ومن هنا كان حفظ ديوانه ، الذى بقى ضمن تراث الشيعة . ومما يرجح ذلك أننا لا نجد بين دفتى الديوان شعراً لابن هانئ يتصل بإشبيلية وحياته فيها . فأغلب الظن أن الشيعة الذين حفظوا ديوانه ، قد عنوا فقط بما يتصل بهم ، أو على الأكثر بالشعر الذى قاله بعد اتصاله بهم وعمله معهم . ومن هنا يرجح أن ديوان

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٩٧ .

(٢) القطر : الناحية والجانب ، ولعل المراد التقاء جانبى الدنيا بطيها يوم القيامة : ديوان ابن هانى ص ٨١ .

ابن هانىء الذى بين أيدينا لا يمثل كل شعره ، وإنما هو فى أغلب الظن مختارات قد اختارها هو فى حياته أو اختارها له غيره من الشيعة بعد مماته .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الديوان يحوى مجموعة طيبة غنية من شعر ابن هانىء ، تصور فنه وحياته ، وتأخذ فى التراث الأندلسى مكاناً مرموقاً[1] .

ثانياً — النثر :

كان أهم مظاهر النهضة الأدبية فى فترة الخلافة ، ظهور نوع من النثر لم تعرفه الأندلس من قبل ، وهو النثر التأليفى . وهكذا أصبح للأدب الأندلسى فى فترة الخلافة نوعان من النثر ، أولهما ذلك النوع الذى عرفته من قبل وهو النثر الخالص ، وثانيهما ذلك النوع الذى ظهر فى تلك الفترة ، وهو النثر التأليفى وسنخص كلا منهما بحديث .

(١) النثر الخالص :

سار هذا النوع من النثر متأثراً بالمذهب الجاحظى الذى بدأ التأثر به فى أواخر الفترة السابقة . وزاد التأثر به فى هذه الفترة . كما أخذ هذا النوع من النثر يتجه بشكل واضح إلى المنهجية والعناية بالبدء والموضوع والختام . كذلك انعكست عليه فخامة الأندلس وعظمتها فى فترة الخلافة . فكثرت الألقاب ، والجمل الدعائية المفخمة ، والعبارات الاعتراضية المعظمة . وظهر الميل إلى التطويل والتكرار والبسط .

ويلاحظ أن النثر الصادر عن ذوى الثقافة الدينية كان أكثر استشهاداً بالقرآن الكريم ، وأعظم ميلا إلى السجع ، وأشد تعلقاً بالإطناب .

---

(١) طبع ديوان ابن هانىء عدة طبعات بعضها فى مصر وبعضها فى بيروت . وخير طبعاته هى التى حققها زاهد على ونشرت بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

وقد لقيت الكتابة الرسمية عناية كبيرة فى تلك الفترة ؛ حيث قام بها طائفة من الأدباء المقتدرين ، ووصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة أو الحجابة .

ومن بين الأسماء التى لمعت فى هذا الميدان . ابن المنذر ، وابن جهور ، وابن بسيل ، وابن فطيس ، وابن أبى عامر ، والمصحفى[١] .

وقد عمل بعض النساء خلال فترة الخلافة ، فى ميدان الكتابة الرسمية . وممن حفظت أسماؤهن : مزنة[٢] كاتبة الخليفة الناصر ، ولبنى[٣] كاتبة الخليفة المستنصر .

وتلك بعض نماذج من فترة الخلافة ، يتضح معها ما أسلفنا من ملاحظات . فمن المنشورات ، ذلك المنشور الذى وجهه عبد الرحمن الثالث إلى حكام الأقاليم ليخبرهم باتخاذه لقب الخليفة ، وليلزمهم بمخاطبته به ، ولينبهوا الخطباء إلى مراعاته . وهذا نص المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه ؛ للذى فضلنا به وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ؛ وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه .

« وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين . وخروج الكتب عندنا وورودها علينا بذلك ؛ إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه . وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه .

---

(١) يمكن استخراج أسماء كثيرة من الكتاب من خلال ما كتبه ابن عذارى فى البيان المغرب عن تاريخ الناصر والمستنصر ج ٢ ص ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) ذكرها ابن بشكوال فى الصلة ترجمة ١٥٣٠ ، والضبى فى البغية ترجمة ١٦٩٠ .

(٣) ذكرها ابن بشكوال فى الصلة ترجمة ١٥٢٩ ، والضبى فى البغية ترجمة ١٥٨٩ .

فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله . والله المستعان »[1] .

ومن الخطب ، تلك الخطبة التى ألقاها الفقيه منذر بن سعيد البلوطى فى حفل الاستقبال الذى أقامه الناصر لسفير إمبراطور القسطنطينية ، وكان أبو على القالى قد وقف ليخطب فى هذه المناسبة ؛ فافتتح بحمد الله والثناء على نبيه ثم أحصر ، فوقف منذر وبدأ من حيث انتهى القالى فقال : « أما بعد حمد لله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه . والصلاة على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ؛ فإن لكل حادث مقاماً ، ولكل مقام مقالا ، وليس بعد الحق إلا الضلال . وإنى قد قمت فى مقام كريم . بين يدى ملك عظيم ، فأصغوا إلىّ معشر الملأ بأسماعكم ، وأتقنوا عنى بأفئدتكم . إن من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت . وإن الجليل — تعالى فى سمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه — أمر كليمه موسى — صلى الله جل وعز على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه — أن يذكّر قومه بأيام الله جل وعز عندهم . وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسوة حسنة . وإنى أذكركم بأيام الله عندكم . وتلافيه لكم ، بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم ، وأمنت سربكم . ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم . ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم . ولاّه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ؛ حتى صرتم فى مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير . فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ؛ وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم الله معاشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعزرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها

---

(١) انظر : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وقد جاء فى آخر المنشور ، « وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ » .

ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ؛ حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم وصرتم يداً على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم . فأنشدكم الله ، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعوة وهى محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهى مطلوبة . بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة . ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملا للنصب ، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب ؛ حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ، ولم يبق لها غارب [1] إلا جبه ، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه[2] . فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً . حتى تواترت لديكم الفتوحات . وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم . وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ؛ لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ؛ ليقضى الله أمراً كان مفعولا . ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية . دليلها قائم . وجفنها غير نائم . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم[3] . وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب . فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ؛ فقد أصبحتم بين خلافة أمير

---

(١) الغارب : الكاهل . والجب : القطع .

(٢) القرن : الذؤابة ، والخصلة من الشعر . والعبارة فى الأصل : « ولا نجع لأهلها قرن إلاجده » . وقد ضبطناها بما يتفق مع السياق ويتأتى معه معنى .

(٣) زاد فى الأصل : الآية .

المؤمنين ــ أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق والرشاد ــ أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا . وأعزهم قراراً ، وأمنعهم داراً ، وأكثفهم جمعاً وأجملهم صنعاً ؛ لا تهاجمون ولا تذادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائه ظاهرون . فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقن الدماء ، وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ؛ وبها سد الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الخلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار . واعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فإنه تبارك وتعالى يقول : " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" (١) . وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين ؛ الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملاكم ، الآخذين فى مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . أقول قولى هذا ، وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين »(٢) .

ومن أمثلة المراسلات ، ما دار بين الفقيه أبى إبراهيم والأمير الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وكان الفقيه قد دعى إلى حفل رسمى بالزهراء فتخلف فغضب الخليفة وأمر ابنه الحكم بالكتابة إليه فى ذلك ، فكتب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك . لمّا امتحن أمير المؤمنين ــ مولاى وسيدى أبقاه الله ــ الأولياء الذين يستعذبهم ، ويجدك متقدماً فى

---

(١) زاد فى الأصل : الآية .

(٢) وردت هذه الخطبة فى : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٢ .

الولاية متأخراً عن الصلة . على أنه قد أنذرك — أبقاه الله — خصوصاً للمشاركة فى السرور الذى كان عنده — لا أعدمه الله المسرة — ثم أنذرت من قبل إبلاغاً فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاعت عليك فيه المعذرة . واستبلغ أمير المؤمنين فى إنكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك الحجة . فعرفنى — أكرمك الله — ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سر به ، ورغب المشاركة فيه ؛ لنعرّفه — أبقاه الله — بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى » .

وقد أجابه أبو إبراهيم كاتباً :

« سلام على الأمير سيدى ورحمة الله . قرأت — أبقى الله الأمير سيدى — هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفى لنفسى ، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا — أبقى الله سلطانه — لعلمى بمذهبه ، وسكونى إلى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب ، رضوان الله عليهم ؛ فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لايمتهنونها بما يشينها ، ولا يغض منها ، ويطرق إلى تنقيصها ؛ يستعدون لدينهم ، ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم . فلهذا تخلفت ، ولعلى بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى »[1] .

ومن أمثلة المحاورات مادار بين الناصر وابنه الحكم بشأن منذر بن سعيد . وكان هذا الفقيه قد انتقد الناصر فى إسرافه فى تشييد قصر الزهراء ، حتى شغل بها عن شهود الجمعة ثلاث مرات . وكان مما انتقد به الفقيه الخليفة ، ابتداؤه خطبة حضرها الخليفة بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » . فغضب الناصر وأقسم ألايصلى الجمع وراء منذر — وكان قاضى مسجد الزهراء — وشرع يصلى وراء قاضى الجماعة بمسجد قرطبة .

---

(١) اقرأ الرسالتين وقصتهما فى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

وقد قال الناصر لابنه فى ذلك :

« والله لقد تعمدنى منذر بخطبته ، وما عنى بها غيرى ، فأسرف على ، وأفرط فى تقريعى وتفريعى ، ولم يحسن السياسة فى وعظى ، فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى » .

فقال الحكم :

« فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك ، والاستبدال بغيره منه إذ كرهته ؟»

فزجره الناصر وقال :

« أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه — لاأم لك — يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ ! هذا مالايكون . وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمع شفيعاً مثل منذر فى ورعه وصدقه ، ولكنه أحرجنى فأقسمت ، ولوددت أن أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى ؛ بل يصلى بالناس حياته وحياتنا ، إن شاء الله تعالى . فما أظننا نعاض منه أبداً » [1] .

ومن المحاورات الطريفة ، تلك المحاورة التى دارت بين الناصر ومنذر نفسه ، وكان الناصر قد أبدع فى تزيين قبة بالذهب والفضة ، حتى جعلها تخطف الأبصار ، وسأل ذات يوم جلساءه من الوزراء والحاشية عنها ، فأكبروا صنعه وأثنوا عليه . ثم دخل عليهم منذر بن سعيد ، فلما جلس سأله الناصر عن القبة كما سأل غيره ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان — لعنه الله — يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من نفسك هذا التمكين — مع ما أتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين — حتى ينزلك منازل الكافرين » .

فانفعل الناصر وقال له :

« انظر ماذا تقول ، وكيف أنزلتنى منزلتهم » .

---

(١) اقرأ هذه المحاورة وقصتها فى : نفح الطيب ج ١ ص ٦٦ ، ٣٦٧ .

فقال له منذر :

« نعم أليس تعالى يقول : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون » .

فوجم الخليفة ، وأطرق ثم قال :

« جازاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيراً ، وعن الدين والمسلمين أجل الجزاء ، وكثر من أمثالك ؛ فالذى قلت هو الحق »[١] .

(ب) النثر التأليفى :

قد ظهر هذا النوع من النثر خلال فترة الخلافة فى صورتين ، أو تمثل حينذاك فى فرعين ، الفرع الأول : التأريخ الأدبى ، والفرع الثانى : التأليف الأدبى أما الفرع الأول ، فكان تأريخاً ساذجاً بطبيعة الحال ؛ فهو مزيج من التراجم ، والأخبار ، والمختارات ، والحديث عن الشعر والشعراء . ومن أمثلة ذلك ما ألفه عثمان بن ربيعة القرطبى باسم « طبقات الشعراء بالأندلس »[٢] . وما ألفه محمد بن هشام المروانى باسم « أخبار الشعراء بالأندلس »[٣] . ثم ما ألفه عبد الله بن محمد بن مغيث بعنوان « شعر الخلفاء من بنى أمية »[٤] . وأخيراً ما ألفه أبو عمر أحمد بن فرج الجيانى بعنوان « الحدائق ». وقد ألف الجيانى هذا الكتاب للحكم المستنصر ، وأودعه مختارات من أشعار الأندلسيين فى الحب . معارضاً بذلك كتاب الزهرة لابن داود الأصبهانى . وقد تضمن هذا الكتاب

---

(١) اقرأ هذه المحاورة وقصتها فى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٨ . وزاد فى هذا المصدر أن الناصر « قام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى . وأمر بنقض سقف القبة » .

(٢) انظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٨٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، وجذوة المقتبس ترجمة ١٩٥٩ ، ونفح الطيب جـ ٣ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) انظر : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٥٤٦ ، وتاريخ الفكر ص ٢٨٦ .

بالإضافة إلى ذلك كثيراً من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجرى[١] .

ومن المؤسف أن أكثر هذه المؤلفات قد ضاع[٢] . ولم يبق مما فقد إلا مقتبسات فى كتب ألفت بعد ذلك . ومع ضياع أكثر هذه الكتب يلاحظ أن هذا النوع من التأليف قد جاء متأثراً بنظيره فى المشرق ؛ فمثلا يلاحظ أن كتاب عثمان بن ربيعة « طبقات الشعراء بالأندلس» قد حمل الاسم الذى سبق به ابن سلام فى كتابه « طبقات الشعراء » . كذلك يلاحظ أن كتاب عبد الله بن مغيث « شعر الخلفاء من بنى أمية » قد عمل صاحبه ما عمله الصولى فى كتابه « الأوراق » الذى تناول فيه شعر بنى العباس . وأوضح من ذلك كله فى تأثر الأندلسيين فى هذا النوع من التأليف بإخوانهم المشارقة ، « كتاب الحدائق » الذى ألفه ابن فرج الجيانى ؛ فقد قال فيه الحميدى صاحب جذوة المقتبس : إنه عارض فيه كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الأصبهانى ، إلا أن أبا بكر إنما ذكر مائة باب ، فى كل باب مائة بيت . والجيانى أورد مائتى باب . فى كل باب مائتى بيت . ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئاً[٣] .

ويستفاد من حديث الحميدى ، أن الأندلسيين مع تأثرهم بالمشارقة فى هذا الفرع الأدبى كانوا يحاولون التفوق على سابقيهم المشارقة ، وكانوا أحياناً يتفوقون فعلا . وهم فى كل ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التى كانت تدعوهم دائماً إلى تأكيد ذواتهم وإبراز جهود بلدهم .

وأما الفرع الثانى من فروع النثر التأليفى وهو فرع التأليف الأدبى فنعنى به تأليف كتب أدب بمفهوم القرن الثالث والرابع لكلمة أدب ؛ فقد كان الأدب يعنى فى تلك

---

(١) انظر : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٧٦ .

(٢) توجد نسخة مخطوطة من كتاب (طبقات الشعراء بالأندلس) فى مدينة فاس (تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٨٥) .

(٣) جذوة المقتبس . ترجمة رقم ١٧٦ .

الفترة ، الثقافة العربية الخالصة . التى تتمثل فى كل ما يكون به التأديب والتهذيب . وعلى هذا جاء كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الكامل للمبرد . وكتاب الأمالى لأبى على القالى ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى . فكلها كتب أدب بمعنى كتب ثقافة عربية خالصة ، يكون بها التأديب والتهذيب والتثقيف . وقد جمعت هذه الكتب بين مختارات الشعر والنثر ، وبين التاريخ والطرائف ، وبين اللغة والرواية ، وبين البلاغة والنقد ، وما إلى ذلك من فروع الثقافة العربية الخالصة . وكانت تلك الكتب مع اشتراكها فى الطابع الثقافى العربى العام ، تفترق فيما بينها تبعاً لميل صاحبها إلى فرع معين من فروع الثقافة ، ومن هنا كان الغالب على البيان والتبيين مثلا طابع البلاغة . وعلى الكامل والأمالى طابع اللغة ، وعلى الأغانى طابع التراجم والشعر الغنائى .

وقد أسهم الأندلسيون خلال فترة الخلافة فى هذا الفرع الأدبى بكتاب قيم هو كتاب :

العقد الفريد

وقد ألفه أحمد بن عبدربه الشاعر والأديب الأندلسى المعروف . وهو كتاب أدب بهذا المعنى القديم لكلمة أدب ، ذلك المعنى الذى كان شائعاً فى القرنين الثالث والرابع ، والذى فى ظلاله ألف الجاحظ والمبرد والقالى وأبو الفرج . فهو كتاب ثقافة عربية عامة ، يجمع بين التاريخ والأخبار والمختارات الشعرية والنثرية ، ويتعرض للبلاغة والنقد والعروض والموسيقى والأخلاق والعادات .

وقد قسم ابن عبد ربه كتابه إلى خمسة وعشرين باباً ، وسمى كل باب باسم حبة من حبات العقد الحقيقى ، وجعل تلك الأبواب فى ترتيبها كحبات العقد المنظوم فى ترتيبه فهو يبدأ عقده بكتاب اللؤلؤة فى السلطان ، ثم يثنى بكتاب الفريدة فى الحروب ومدارها ، ثم يتبع ذلك بكتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد ، ثم بكتاب الجمانة فى الوفود ، ثم بكتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك ، ثم بكتاب الياقوتة فى العلم والأدب ،

ثم بكتاب الجوهرة فى الأمثال ثم بكتاب الزمردة فى المواعظ والزهد ، ثم بكتاب الدرة فى التعازى والمراثى . ثم بكتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ، ثم بكتاب العسجدة فى كلام الأعراب ، ثم بكتاب المجنبة فى الأجوبة . وهنا تأتى الواسطة فى الخطب. وبعد الواسطة تأتى أبواب بتلك الأسماء السابقة ، كأنها حبات مماثلة تأتى على الجانب الآخر من واسطة العقد الحقيقى . فيأتى بعد الواسطة كتاب المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة ، ثم كتاب العسجدة الثانية فى الخلفاء وتاريخهم وأيامهم ، ثم كتاب اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ، ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ، ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، ثم كتاب الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى ، ثم كتاب الياقوتة الثانية فى علم الألحان والاختلاف فيه ، ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ، ثم كتاب الجمانة الثانية فى بيان المتنبئين والموسومين والبخلاء والطفيليين ، ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان ، ثم كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب ، ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح .

وهكذا ينتهى آخر باب فى العقد بلؤلؤة كما بدأ أول باب بلؤلؤة ، تماماً كما ينتهى أى عقد بحبة مماثلة للحبة التى بدأ بها .

ويلاحظ من هذا العرض السريع لأبواب الكتاب ، طبيعة المادة التى يحويها . وأكثر مواد الكتاب تتصل بالمشرق وتاريخه وسير أعلامه وأخبار فنانيه . والقليل جداً من مواد العقد هو ما يتصل بالأندلس . وهذا ما حدا بالصاحب بن عباد إلى القول عن هذا الكتاب : « هذه بضاعتنا ردت إلينا»[1] .

والسبب فى إيراد المؤلف كتابه على هذا النحو المشرق ، هو أنه أراد أن ينقل إلى

---

(١) انظر : معجم الأدباء لياقوت جـ ٤ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

مواطنيه ثقافة عامة عن المشرق تغنيهم عن الرجوع إلى كثير من الكتب وعديد من المراجع . كما أن المؤلف أراد أيضاً أن يبين تفوق الأندلسيين حتى فى الثقافة المشرقية نفسها .

أما مصادر كتاب ابن عبد ربه . فهى كثيرة متنوعة ، قد اتصل بها المؤلف بما أتيح له من ثقافة واسعة وعمر مديد . وفى مقدمة تلك المصادر « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، « والبيان والتبيين » و « البخلاء » و « الحيوان » للجاحظ ، و « الكامل » للمبرد ، و « طبقات الشعراء » لابن سلام ، و « السيرة » لابن هشام ، و « كليلة ودمنة » لابن المقفع . هذا إلى كثير من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين[1] .

ولابن عبد ربه طريقته فى العرض ؛ فهو دائماً لا يأتى بالسند ، على عكس صاحب الأغانى . وهو أحياناً لا يدقق فيما يروى من أخبار . ثم هو غالباً يتبع ما يورد من نصوص شعرية بشعر له هو .

والكتاب عظيم القيمة من النواحى التاريخية والأدبية والعلمية ، وهو ذخيرة أدبية حافلة بالنصوص القيمة شعراً ونثراً فى شتى الفنون والأغراض والمواقف ، وهو موسوعة ثقافية عربية عامة ، فيها اللغة وفيها النقد وفيها العروض ، بل فيها الموسيقى . وهو إلى ذلك مصدر لمعرفة كثير من تاريخ الأندلس وأخبار حكامها وعادات أهلها . والكتاب بعد ذلك كله أهم مرجع لفن ابن عبد ربه ؛ فهو يشتمل على نماذج كثيرة من شعره ونثره .

هذا ، والكتاب لم يكن يوصف « بالفريد » فى أيام صاحبه ، وإنما كان يسمى بالعقد . وقد أضاف بعض المتأخرين الوصف بالفريد ، فعرف من يومها « بالعقد الفريد » . فقد ذُكر الكتاب فى كل المراجع القديمة مجردا من هذا الوصف ؛ ذكره الضبى فى « بغية الملتمس » قائلا عن ابن عبد ربه : « وله الكتاب الكبير المسمى العقد فى الأخبار » . وذكره ياقوت فى « معجم الأدباء » بنفس الاسم فقال عن المؤلف : « وهو صاحب

---

(١) اقرأ تحليلا وافياً لمواد العقد فى كتاب الأستاذ جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده .

كتاب العقد فى الأخبار» . وكذلك كل المؤلفين المتقدمين لم يذكروا كلمة « فريد» التى اشتهر بها كتاب « العقد » فيما بعد ، مثل ابن شرف القيروانى ، والفتح بن خاقان ، وصاعد التطيلى ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، وابن بسام . ولعل أول من ذكر كلمة « فريد» هو الأبشيهى صاحب « المستطرف فى كل فن مستظرف» . وربما كان ذكر الأبشيهى لتلك الصفة بدافع تكوين سجعة ، فهو يقول فى كتابه : « ونقلت كثيراً مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد ، ورجوت أن يجد مطالعه كل ما يقصد ويريد »[١] .

وليس من شك فى أن ابن عبد ربه قد أخرج هذا الكتاب فى صورته الكاملة أيام الناصر ، بل إن هذا الإخراج كان بعد أن تلقب الناصر بلقب أمير المؤمنين[٢] أى بعد سنة ٣١٦ هـ ؛ لأن ابن عبد ربه يخلع على الناصر هذا اللقب . ومع هذا فالمرجح أن المؤلف قد بدأ فى عمل هذا الكتاب قبل عهد عبد الرحمن الناصر ؛ لأن الأرجوزة العروضية التى فيه مختومة بالدعاء للأمير عبد الله[٣] . ولعل ابن عبد ربه كانت لديه بعض مواد الكتاب قبل تأليفه بصورته التى هو عليها الآن ، وكان من تلك المواد ما أعده قبل عهد الخلافة ، ومنها ما أعده أيام الخلافة ، ثم جمع ذلك ونسقه وكمله وأخرجه فى هذا « العقد »[٤] .

ونثر ابن عبد ربه — كما يبدو من كتابه — نثر جيد خال من التكلف ، أقرب إلى الوضوح والسلاسة ، مع ميل شديد إلى الاقتباس والاستشهاد وإيراد مأثور القول ، ومع

---

(١) انظر فى هذا ، التحقيق المفصل الذى كتبه جبرائيل جبور عن كتاب العقد ، فى كتابه القيم ، ابن عبد ربه وعقده .

(٢) انظر العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

(٣) انظر : العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٤ .

(٤) طبع كتاب العقد عدة مرات فى مصر منها : طبعة بولاق سنة ١٢٩٣ . وطبعة العثمانية سنة ١٣٠٢ . وطبعة الشرفية سنة ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ . وطبعة الأزهرية سنة ١٣٣١ . وأحسن طبعة هى التى أخرجتها لجنة التأليف بتحقيق الأساتذة : أحمد أمين وإبراهيم الإبيارى وأحمد الزين .

رغبة فى التزيين والسجع فى بعض الأحايين . وهذا نموذج من كتاب العقد ، يصور طريقة ابن عبد ربه وأسلوبه ، ويعطى فكرة عن آرائه فى الأدب وتأليفه . يقول ابن عبد ربه فى مقدمة العقد :

« . . . وبعد ، فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة ، قد تكلموا فى الأدب وتفلسفوا فى العلوم على كل لسان ومع كل زمان . وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته ؛ وبذل مجهوده ، فى اختصار بديع معانى المتقدمين ، واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا فى ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار ، والمتخيِّر إلى اختيار .

« ثم إنى رأيت آخر كل طبقة . وواضعى كل حكمة ، ومؤلفى كل أدب أعذب ألفاظاً ، وأسهل بنية ، وأحكم مذهباً ، وأوضح طريقة من الأول ؛ لأنه ناقض متعقب ، والأول بادئ متقدم .

« فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة ، والكتب المترجمة ، بعين إنصاف ، ثم يجعل عقله حكما عادلا ، وفيصلا قاطعاً ؛ فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ، طيبة المنبت ، ذكية التربة ، يانعة الثمرة ؛ فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ، ومنهاج من الحكمة ؛ لا يستوحش صاحبه ، ولا يضل من تمسك به .

« وقد ألفتُ هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخيرات جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ؛ فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب . وإنما لى فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرشٌ فى صدر كل كتاب . وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قالوا : اختيار الرجل وافدُ عقله .

« وقال الشاعر :

قد عرفنـــاك باختيارك إذ كا ن دليـــلا على اللبيب اختياره

« وقال أفلاطون :

عقول الناس مدفونة فى أطراف أقلامهم ، وظاهرة فى حسن اختيارهم . فتطلبت نظائر الكلام : وأشكال المعانى وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ، ثم فرقت كل جنس منها إلى جنسه ؛ فجعلته باباً على حدة ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره فى كل باب .

« وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهراً ، وأظهرها رونقاً ، وألطفها معنى ؛ وأجزلها لفظاً ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها حلاوة وطلاوة ؛ آخذ بقول الله تبارك وتعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون . وقال ابن سيرين : العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل شىء أحسنه . وفيما بين ذلك سقط الرأى وزلل القول ، ولكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة .

« وقيل للعتابى : هل تعلم أحداً لا عيب فيه ؟ قال : الذى لا عيب فيه لا يموت أبداً ، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة . وقال العتابى : من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن ، إلا من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى ، وقليل ما هم .

« وحذفتُ الأسانيد من أكثر الأخبار ، طلبا للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل ؛ لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر ، لا ينفعها الإسناد باتصاله ، ولا يضيرها ما حذف منها . وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث عن سنة متبعة ، وشريعة مفروضة ؛ فكيف لا تحذف من نادرة شاردة ، ومثل سائر ، وخبر مستطرف ، وحديث يذهب نوره إن طال وكثر ؟ ! . سأل حفص بنُ غياث الأعمش عن إسناد

حديث ، فأخذ بحلقه وأسنده إلى حائط وقال : هذا إسناده ! ! . وحدّث ابن السماك بحديث ، فقيل له ما إسناده ؟ فقال : هو من المرسلات عرفاً ، وحدّث الحسن البصرى بحديث ، فقيل له : يا أبا أسعد ، عمن ؟ قال وما تصنع بعمن يا ابن أخى ؟ أمّا أنت فنالتك موعظته ، وقامت عليك حجته .

« وقد نظرتُ فى بعض الكتب الموضوعة ، فوجدتها غير متصرفة فى فنون الأخبار ؛ ولا جامعة لجل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر ، مجانس الأخبار فى معانيها . وتوافقها فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ، ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ، حظّاً من المنظوم والمنثور »[1] .

---

(١) انظر العقد الفريد . المقدمة .